

القِسْمُ الأوَّلُ

عَنِ اللُّغَةِ
[نشأة . . . وقضايا]

obeikandi.com

مَدْخَلٌ

لا يضير هذه الصفحات - منذ البدء - أن تعترف بأنها هنا لا تقدم جديداً في (علم اللغة). وبخاصة إذا عرفنا أن وظيفة اللغوي في هذه المرحلة (لم تعد فرض القواعد، وإنما هي مجرد وصف للحقائق المقررة). كما يقول آرنولد سميث.

وإذا كان غرور الجهل يدفع ببعض الساذجين إلى الامتلاء الذاتي بما يسودون من الصفحات البيضاء. فإن هذه السطور تعرف جيداً قيمة التواضع العلمي، الذي ينحني في خجل وهو يمسك أوراقه الدابلة بيديه، في حضرة هذا الرائع الخليل اللامتناهي الذي اسمه: (العلم).

لقد أفادت هذه الصفحات من مصادر كثيرة أتيجت لها، ومن مصادر أخرى كثيرة أتاحتها لها آخرون، وهي في كل أولئك تدعو بالمغفرة للسالفين، وبمزيد من العطاء للمخالفين، آملة أن تكون قد أجادت عنهم الفهم وأحسنّت في تلقّيها عن حضورهم العلمي فيما أبدعوا من شوامخ الأعمال، وأن يتسامحوا إذا اتكأنا عليهم في كثير من أشواط الرحلة الطويلة!

obeikandi.com

عن اللغة العربية

من العصر الجاهلي - إلى العصر الحديث

اللغة - أية لغة - ظاهرة إنسانية إجتماعية، تعرف بها الملامح المميزة لكل مجتمع في كل عصر من عصور التاريخ .

وهذه اللغة ، مجموعة من الرموز التي يتعارف عليها المجتمع ، فلا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ ما لم تفقد رموزاً معينة يستعين بها المجتمع على تلبية حاجاته وضروراته أى أن (اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) (١) .

وهي رموز عاملة في مجال تطوير الحياة الفكرية ودفعها إلى الأفضل كسائر الرموز الأخرى (أليست هذه الألفاظ العامة التي نستعملها : كالشجرة والإنسان والبشرية والحرية ، أشبه بالرموز الرياضية ؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم ؟ أو لم تكن الرموز الرياضية والاقتصادية وسيلة للرقى في الميدانين الفكرى والاقتصادى ؟ وكذلك اللغة ، فهي لم تقتصر على كونها معبرة عن التفكير ، بل كانت كذلك أداة نمائه وارتقائه (٢) .

و (فقه اللغة) يقوم على أساس من الاهتمام بالكلام . ومحاولة التعمق في دراسة قواعده وأصوله وتاريخه ، ومن هنا فقد اهتم علماءنا القدامى بقواعد اللغة ناصيلاً وتعميداً . . . وتاريخ أدها تسجيلاً وتدويناً . . . وينقد نصوصها تفسيراً وتأويلاً .

أما منهج البحث في فقه اللغة المعاصر ، فقد أصبح منهجاً استقرائياً

(١) ابن جنى - المصانص - ٣١/١ . وأنظر : (المزمع) للسيوطى - ج ١ - ص ٧ .

(٢) محمد المبارك - فقه اللغة ص ٢ .

وصفيا ، (يعرف به موطن اللغة الأول ، وفصيلتها ، وعلاقتها باللغات المحاورة أو البعيدة الشقيقة أو الأجنبية ، وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتركيبها وعناصر لهجاتها وتطور دلالتها ، ومدى نمائها قراءة وكتابة) (١) . . . وتعلق هذه البحوث بعلوم ثلاثة إذن . هي : التاريخ . . . وعلم الأصوات . . . وعلم الدلالة . . . فالتاريخ يخوض في زمن النشأة والاطراد . . . والأصوات تركز على التباين العضوي والموضوعي . . . والدلالة تشير إلى الثبات والصيرورة في علاقة الدال بالمدلول .

وقد انتهى البحث في اللغة إلى مجموعة من النتائج التي أصبحت مسلمات مستقرة في الدراسات اللغوية ، لعل من أهمها :

١ - التخلي عن نظرية التوقيف (الإلهام الإلهي) . واعتبار اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية والكف عن المضي في عبثية البحث عن اللغة الإنسانية الأولى .

٢ - تخلص الدراسات اللغوية من التأويل والتقدير والاعتبارات الفلسفية والاتجاه إلى دراسة اللغة وجهة موضوعية إحصائية .

٣ - ضرورة التفريق بين الحقائق اللغوية التاريخية والوصفية الثابتة .

٤ - تقسيم اللغات إلى عائلات ، ودراسة كل مجموعة منها تنتمي إلى عائلة واحدة دراسة مقارنة لمعرفة حقيقة التطور الذي مرت به ، والأصل اللغوي الذي صدرت عنه (٢) .

هذا عن اللغة بشكل عام . . فماذا عن اللغة العربية ؟ وماذا عن مسيرتها منذ العصر الجاهلي حتى الآن ؟

(١) د. صبيح الصالح - دراسات في لغة الله ص ٢١-٢٢ .

(٢) أنظر اللغة والتطور - د/ عبد الرحمن أيرب ص ٢٢ .

(٢)

بلغت العربية في العصر الجاهلي (من قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢م) شأواً بعيداً في النضج والاكتمال ، مما يدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة ترجع في أعماق التاريخ إلى آحاد سحيقة ، لأن مثل هذا التطور الهائل لا يمكن بداهة أن يتم بين يوم وليلة . . . وإذا كان التاريخ لم يع جيداً خطوات هذا التطور الغوي منذ فجر تاريخه وعباً كاملاً ، فإن هذا لا يعني أبداً أن هذا الفجر غير موجود .

(٣)

وفي العصر الإسلامي (من ظهور الإسلام إلى سنة ٥٤١هـ) أخذت العربية - كلفة دين إلى جوار كونها لغة فن وفكر وحياة - تحتل مواقعها البارزة في الحياة العربية والإسلامية بعامة ، فلقد حملها الفاتحون المسلمون إلى أصقاع نائية من أسبانيا غرباً ، إلى أواسط آسيا نحو المشرق .

وإذا كان القرآن الكريم قد أعطى هذه اللغة قيمة الحلول في التاريخ من حيث هو كتاب مقروء ومتعبّد بتلاوته ، فإن الجهود البشرية التي استقطبت القرآن محوراً لاهتماماتها الفكرية والفنية قد أعطت لهذه اللغة عطاء موصولاً فيما بعد .

ولكن عرب البادية ظلوا سدنة لهذه اللغة ، يحفظون متنها من التحريف ، ويحمون معجمها من التبدد .

على أن هذا الحرص الحريص لم يمنع اللغة من جريانها الطبيعي في مضمار التطور وفق إيقاع الاختلاط البيئي والبشري والثقافي ، فلقد انساحت هذه اللغة - بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم - في أمصار متفرقة ، وتأثرت بداهة بهذا الحديد .

وفي عهد الدولة الأموية (٥٤١ - ٥١٣٢هـ) كثرت هجرات القبائل العربية الفاتحة حاملة معها لهجاتها نحو الشمال إلى فلسطين وسورية وما بين النهرين حتى جبل طورس وجبال أرمنية . . ونحو الشرق عبر العراق إلى إيران . . ونحو الغرب عبر شبه جزيرة سيناء إلى مصر وشمال أفريقيا . . إلى غير ذلك كله من الأمصار والأقطار .

وطبيعي أن تؤثر العربية في هذا المعترك وأن تتأثر كذلك ، وأن يقضي التاريخ لها من الأنصار من يثرى جوانب نحوها ولغتها ومنها . . ومن الأعداء أيضاً - من يحاول طمسها أو تحيئتها أو النيل منها على الأقل .

ومهما يكن من شيء ، فلقد ظل العصر الأموي حريصاً على طابعه العربي ، على الرغم مما شابهه من اختلاط العرب بغيرهم ، وظهور بوادر الخلط اللغوي ، وبرز بعض خصائص اجنبية في اللسان العربي المتكهن وفتور الإحساس اللغوي منذ أواخر القرن الأول .

من هنا نشأت الحاجة في هذا العصر إلى ظهور مبدأ (تنقية اللغة) كما دفع بالعلماء إلى التوفر على دراسة قواعدها وتأصيل أصولها حتى تظل بعيدة عن الدخول في مناهات الخلط والاختلاط .

وبمقووظ الدولة الأموية ويزوغ العهد العباسي (٥١٣٢ - ٥٦٥٦هـ) دخلت العربية طوراً جديداً من أطوار حياتها . فلقد بعد عهد الناس بحياة البادية، واختلط العنصر العربي الخالص بغيره من العناصر والأجناس، وشاعت في الحياة ألوان من التطور الحضاري ، كل أولئك انعكس على حياة اللغة حروفاً وأصواتاً ومادة وأسلوباً .

على أن القرآن الكريم كان ما يزال عاملاً في ضمير المسلمين على تأكيد أن العربية جزء من الحقيقة الإسلامية ، فظهرت اتجاهات التفتيد اللغوي في

مدارس البصرة والكوفة ، وظهر اتجاه التأصيل لقواعد اللغة على يد سيويه ، وظهرت نهضة شاملة في التعبير على يد العرب والمتعربين من أمثال ابن المقفع و بشار ، وظهرت مؤلفات في لحن العامة وفي أوهام الخواص سخدمت مبدأ تنقية اللغة وأعانته على رد الاحتجاج اللغوي إلى عرب البادية . . . ولكن كل هذا التحوُّط لم يمنع التطور من اقتحام الساحة فدخلت على العربية ألوان من التجديدات امتوعبها كلغة حية وواقعة من نفسها وقادرة دائماً على التمثل والعطاء .

ولكن ، لم يكن كل مادونه علماء اللغة في العصر العباسي صحيحا ، ولم يكن كل علماء اللغة ولا كل المأخوذ عنهم بمنجاة من الخطأ والاختلاق ، وربما كان التنافس المحتدم فيما بينهم من وراء هذه الظاهرة ، وربما كان عدم فهم معنى بعض الكلمات أو الخطأ في بعض الحوادث التاريخية سببا آخر من أسبابها . . . ويبدو أن معاجم اللغة جاءت فجمعت كل ما وجدت ، وتأولت الخطأ ، وصوبت الأغلاط ، وأخذت كل الآراء على اختلافها وتباينها بلا تحقيق .

وربما كان من الحق أن يقال إن معجم اللغة قد أثرى في هذا العصر ثراء ملحوظا وذلك من طريقين : طريق التوسع في مدلول الكلمات العربية : كالفاعل والمفعول الذمويين ، والقضية والموضوع والمحمول في المنطق ، والطويل والخفيف والمديد في العروض ، فقد كانت لهذه الألفاظ معانيها الوضعية المحددة في الاصطلاح القاهومي قبل أن تنشأ هذه العاوم التي أستعملت فيها ، وحين استحدثت هذه العاوم خرجت هذه الألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى تدل على حركة حلولها الاصطلاحية في النحو والمنطق والعروض . . . وطريق نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى العربية كأسماء البلدان والنباتات والحيوانات والآلات والأمراض والمآكل

وكان هذا النقل هو الآخر يتم من طرفين : طريق العلماء العربيين للكتب وطريق العامة الذين يسمعون الكلمة الفارسية أو اليونانية فيقلدون نطقها . ولذلك صعب وضع قواعد ثابتة لهذا النوع من الكلمات المنقولة (١) .

وحيث قويت اللغة المولدة منذ أواسط القرن الثالث ، انحسر مدد العربية الفصحى ، وصار تقهراً أن تحتذى لغة الهادية احتذاء كاملاً .

- ٦ -

وكان انحلال الدولة العباسية إلى دويلات - في القرن الرابع - بداية نشوء اللهجات الإقليمية التي يتميز بعضها عن بعض ، ومع ذلك ظلت الفصحى ملكة متوجة على عرشها الفوق الذي لا ينزل إلى أرض الناس . ومن هنا أصيبت بشيء كثير من البعد عن حركة التأثير الحي الذي هو رافد الحياة بالنسبة إلى أية لغة من اللغات .

- ٧ -

وحيث انحلت الدولة في القرن الرابع إلى دويلات ، واستولى السليجوقيون ومن بعدهم على مقاليد الحكم ، جعلوا من اللغة الفارسية منافساً قوياً للغة العربية ، فقد صارت الفارسية اللغة الرسمية ، ولغة الأدب . والشعر والعلم حتى لقد ألف بها حجة الإسلام الغزالي وغيره .

ولقد حاول أبو زكريا القبريزي بما وضعه من شروح لغير قليل من دروئين العربية وعيون كتبها ، وما وضعه الخريزي بكتابه (درة الغواص في أوهام الخواص) وغيرهما أن يعيدوا إلى العربية شباهاً الأول ، إلا أن سيئ اللغة الدارجة كان أقوى فاستحوالت الفصحى إلى ضعف من بعد قوة . وإلى انحسار بعد انتشار .

(١) أنظر ضحى الإسلام - لأحمد أمين الجزء الثاني .

(٨)

وحين اكتسح السيل المغولي خلافة بغداد سنة ٦٥٦ هـ . كان على العربية أن تواجه مصيرها المخزن ، وأن تمرّ بتجربة المعاناة التاريخية الفادحة فتتحمل أحلك ألوان الترهّل والاكتهال ، لفترة امتدت حتى أواخر القرن التاسع عشر (١) .

(٩)

ومع بداية القرن العشرين استعاد التاريخ اللغوي وجهه الناظر ، وأخذت العربية تزيج من طريقها ركاماً من وراء ركام ، حتى استحوّلت إلى مآزرها عليه الآن من حيوية ونضارة وتطور واخضرار ، ولعمل الاحتكاك بالفكر الأوربي ، وتدفق تيار الترجمة ، وظهور الطباعة والصحافة والجامع والجامعات وانبعث الحس القومي من رقدته الطويلة .. كانت من وراء عودة الحياة إلى هذه اللغة ، وتجديد شبابها شكلاً ومضموناً وحلولاً في جدل الحركة التاريخية المعاصرة .

(١٠)

هذه لحة خاطفة عن مسيرة اللغة العربية بعامة منذ العصر الجاهلي حتى الآن ، لم نشأ أن نعمق فيها البحث ، أو نوثق فيها المقولات ، لأننا ندرك جيداً أن حجم مثل هذا العمل إذا قصد إليه الباحث - لا يمكن أن يختصر في هذه المساحة أو يأوى إلى هذه الصفحات الراكضة في هوامش التاريخ ..

(١١)

فماذا إذن عن (علم فقه اللغة) هذا العلم الذي حاول أن يعطى للغة أساساً فلسفياً وأن يجعل مفرداتها وتراكيبها عناصر نابضة في بنية حياة

(١) انظر العربية ليوهان فك ترجمة د . عبد الحليم النجار .

فاعلة ؟ ماهى المراحل التاريخية والفكرية التى شهدت أبرد إنجازاته فى هذا الصدد أو ذلك ؟

ماهى أهم المؤلفات التى كتبها فيه أولئك الأعلام من علمائنا السابقين ومن هم أولئك الأعلام الذين حملوا عبء هذا العمل العلمى الكبير ؟

لعل أقدم ما وصلنا من دراسات علمائنا العرب فى فقه اللغة (مباحث الأصمعى) أبى سعيد عبد الملك بن قريب المتوفى سنة ٢١٥ هـ . عن الاشتقاق فى العربية ، وهى محاولات بادئة يمكن أن تعدّ توطئة لظهور فقه اللغة ، ولكنها لا يمكن أن تكون فقه اللغة بالمعنى الحقيقى .

ثم ألف (أبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) كتابه : (الخصائص) وتناول فيه قضايا أصل اللغة بين التوقيف والتوفيق ، ومقاييس العربية ، واطرادها وشذوذها وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ، وتركيب اللغات ، واختلاف اللهجات .^٥

ثم ألف (أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) كتابه : (الصحاح فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها) . وقد ذهب إلى أن اللغة مزيج من التوقيف والتوفيق كما تناول خصائصها واشتقاقها وقياسها ومترادفها ومجازها واشتراكها ونحوها واختلاف لغاتها ولهجاتها .

ثم كتب (أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) كتابه : (فقه اللغة) وقد ضمنه بعض المباحث اليسيرة التى يمكن أن تُضاف إلى فقه اللغة ، كإيراد بعض الألفاظ العربية التى نسبها أئمة اللغة إلى الرومية أو بعض الأسماء القائمة فى لغة العرب والفارس على لفظ واحد ، أو الأسماء التى تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هى . أو الأسماء التى ماتت فارسيتها مع أن عربيتها . انزال مستعملة محكية .

ولكن كل هذه المباحث لا تشغل من الكتاب سوى خمس عشرة صفحة ،
أمّا عداها فهو عبارة عن أسماء الأشياء والأحياء وصفاتها المتعددة
والمتناقضة والمتوافقة .

ثم يؤلف ابن سيده (الحسن على بن إسماعيل الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨هـ)
كتابه : (المخصص) . وقد تناول فيه نشأة العربية ، وقضايا الترادف
والتضاد والاشتراك والاشتقاق وتعريب الألفاظ الأعجمية .

ثم يؤلف (أبو منصور الجواليقي من علماء القرن السادس الهجري)
كتابه : (المعرب من الكلام الأعجمي) .

ويؤلف (البشبيشي المتوفى سنة ٨٢٠هـ) كتابه : (التذيل والتكميل
لما استعمل من اللفظ الدخيل) .

ثم يؤلف (جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ) كتابه الجامع :
(المزهر في علوم اللغة وأنواعها) . وقد جمعه من الكتب المتقدمة وراى
عليها ، وهو ألصق هذه المؤلفات جميعها بالمعنى الحقيقي لفقته اللغة ، ويتناول
فيه السيوطي قضايا نشأة اللغات ، وتداخلها ، وتوافقها ، والمصنوع ،
والفصح ، والمستعمل ، والمهمل ، والحواشي ، والغريب ، والمعرب
والمولد ، والاشتقاق ، والاشتراك . والترادف : والتضاد ، والنحت ،
والتصحيف ، والتحريف ، والشوارد ، والنوادر ، وما اختلفت فيه لغة
الحجاز ولغة تميم .

ثم يؤلف (شهاب الدين الخفاجي من علماء القرن الحادي عشر)
كتابه : (شفاء العليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل) وقد غنى فيه
خاصة بالألفاظ الدخيلة على العربية .

ثم يؤلف (أحمد فارس الشدياق . في المائة الثالثة عشرة) كتابه :
(سحر الليال في القلب والإبدال) . وقد اتبع فيه طريقة القدامى والفرنجة ،
(م ٢ - من اللغة والأدب)

فحاول إرجاع معاني الكلمات ومعاني تقلاباتها إلى أصل واحد تيسيراً على الباحث عن المعاني .

وفي المائة الرابعة عشرة يؤلف (السيد كرافت حسين الهندي) كتابه :
(فقه اللسان) .

وتواتر المؤلفات بعد ذلك شاملة كل مناهج البحث ، ومستفرقة كل جوانب الموضوع ، ويصبح علم (فقه اللغة) علماً محدد الأبعاد والأعماق والاتجاهات ويدلف المؤلفون من مجرد تأمل الظاهرة اللغوية في نسقها التاريخي أو الوصفي إلى أبهاء فلسفة اللغة معجماً ومصطلحاً ودلالة واتجاهاً .

ولكن اللغة العربية ما تزال بحاجة إلى جهود كثيرة باذلة ، للكشف عن جوانب الروعة الرائعة التي تكمن في مصطلحها الكمي ، وفي نوعية ماتعطيه على المستوى التعبيري من دخول في أدغال الظاهرة الإنسانية والوجودية وهي جوانب هائلة بكل المقاييس . .

(١٢)

وإذا كان فقه اللغة علماً يبحث في نشأة اللغة ، وعلاقتها بغيرها ، وخصائص أصواتها وأبنية مفرداتها وتراكيبها ، وعناصر لهجاتها ، وتطور دلالاتها ، والعوامل التي أثرت فيها ، والقوانين التي تحكم الصلة بين ألفاظها . فإن الغرض من دراسته هو نشأة اللغة ، وحصر كلماتها ومعرفة الأطوار التي مرت بها علاقتها ، وخصائص أصواتها وأبنية مفرداتها وتراكيبها ، وعناصر لهجاتها وما طرأ على العوامل التي أثرت فيها ، والقوانين الحاكمة لها ، دراسة معلّلة ، ومرتبطة في النهاية بطبيعة القوانين الإنسانية والاجتماعية والحضارية الحاكمة .

ومن هنا.. تبدو حاجة الإنسان إلى اللغة حاجة ضرورية لازمة ،
ويمكن أن نتصور الإنسان الأول وهو تائه في أحراش الوجود ،
يغتصب قوته من الأرض ويصارع وحرشها ليعيش ، ويجيا في عزلة قابضة
عن كل ما حوله ومن حوله ، لأن وسيلة الاتصال بمن حوله لم تكن موجودة
بعد... تحت وطأة هذه الوضعية ، اضطر الإنسان الأول إلى معاضدة أخيه
الإنسان ليتمكن الجميع من قهر القوى الطبيعية والروحانية المحيطة وفي ظل
هذا (الاجتماع) البادئ تولد نوع من التفاهم ، تدرج من الإشارة إلى
الصوت المجرد ، إلى الألفاظ ، إلى الجُمْل .

فإذا عرفنا أن اللغة كلها - منذ البدء وحتى الآن - ليست شيئاً سوى
رموز تتواضع عليها ، عرفنا إمكان الاجتماع البشرى في هذه المراحل
الباكرة ، وعرفنا كذلك مدى حاجة الإنسان إلى اللغة أداة للتواصل النفسى
والفكرى والحيوى ، ثم عرفنا أيضاً كيف أمكن للإنسان بما أودع الله فيه
من قوى طبيعية كامنه أن يطور أدواته اللغوية وأن يصل بها إلى هذا التطور
الحضارى الذى نعيشه الآن .

لقد قلد ، وأشار ، وصوت ، ولهج بالمفردة ، ثم امتك الحملة الكاملة ،
فأعلن بامتلاكه لها بدء استيلائه على عرش الوجود . ولكن من المؤكد أن بدء
دلالة الألفاظ على المعانى لم يزل غيباً محجوباً ، وقصارى ما يبذل حوله من
آراء إنما هو مجرد اجتهادات .

obeikandi.com

عن نشأة اللغة الإنسانية الأولى

رأى بعض العلماء العرب أن اللغة توقيفية (أى إلهام من الله) واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية وأدلة عقلية ، وواجهوا في ذلك اعتراضات كثيرة .

ورأى البعض الآخر أن اللغة اصطلاحية أوجدها الإنسان إما عن طريق المواضعة والاصطلاح وإما عن طريق المحاكاة . . واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية وأدلة عقلية كذلك . وإيضاً ووجهوا باعترضات كثيرة .

وسنحاول أن نتتبع ملامح هذا الجدل النظرى ، وأن نعرض أصول النظريات وأسانيدها ، والدفع التى ووجهت بها ، على مستوى العقل والنقل جميعها ، وسنرى أن آراء كثيرة جديدة بالتقدير قد قيلت بالفعل فى هذا الصدد ، إيجاباً وسلباً ، إثباتاً ونفيًا

وسنبدأ بعرض آراء علمائنا العرب ، ثم نقف على ذلك بآراء العلماء الغربيين ، آمليين أن نعطي - ما أمكن - صورة متكاملة لهذا الجدل المثير .

- ١ -

آراء العلماء العرب

النظرية الأولى : اللغة توقيفية :

قال فريق من العلماء إن (اللغة توقيفية) أى من عند الله ، فهو الذى لقن آدم كل شئ ، وهو الذى هداه إلى المقاطع الصوتية فكون الكلمات ، وركبها ، وربط الحروف والألفاظ بمعانيها ، إما بطريق الوحي ، أو بخلق أصوات فى بعض الأجسام ، أو بعلم ضرورى . . . وكان أبو الحسن الأشعري من المتكلمين ، وأبو الحسين أحمد بن فارس من اللغويين ، على رأس القائلين بهذه النظرية .

واستدل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بدليل عقلي ، وآخر نقلي ،
ولكن أياً من الدليلين لم يسلم من معارضة ونقض .

فأما الدليل العقلي : فبرى القائلون به :

١ - أن الدليل على صحة القول بالتوقيف - إجماع العلماء على
الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم
بأشعارهم . ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج
بهم بأولى منّا في الاحتجاج بنا لو اصططحنا على لغة اليوم ولا فرق . وهذا
قال ابن فارس (١) .

٢ - وأنه لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها
إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليه الكلام ، ويلزم إمّا الدور
أو التسلسل في الأوضاع وهو محال . فلا بدّ من الانتهاء إلى التوقيف (٢)
ويقول ابن فارس : لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا
أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عاينه ، فكنا نستدل بذلك
على اصطلاح كان قباهم .

٣ - وأن الكلام أجل من أن يبدعه الإنسان وكيف يبدعه وهو إمّا يفكر
عن طريق ألفاظ متخيلة يتاجى بها نفسه ، فالفكرة متوقفة على الكلام وإذا
كان الطفل لا يفكر إلا بعد أن يكلمه أبواه ، فكللك الإنسان الأول لم يفكر
إلا بعد أن كآمه الله .

ويستطرد ابن جنى يقول :

وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة وجدت فيها من
الحكمة والدقة والإرهاف والرقّة ما يملك على جانب الفكر حتى يكاد يطمح

(١) انظر : (المزهر) للسيوطى - ج ١ - ص ٩ .

(٢) انظر : (المزهر) للسيوطى - ج ١ - ص ١٨ .

به أمام غلوة السحر . . فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ،
ومنه ما حدثته على أمثلتهم فعرفت بتابعه وانقياده وبعد مرايمه وآماده
صحة ما وفقروا لتقدمه منه ولطف ما أسعدوا به . وفرق لهم عنه ،
وانضاف إلى ذلك وزد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله عز وجل :
فقوى في نفسى اعتقادكوسها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحى . (١)

الردود على الأدلة العقلية :

١ - للرد على الفقرة الأولى ، قيل : إن كلام ابن فارس ، عن اللغة
العربية حين شئت عن الطوق ، وأصبحت لغة قراءة وكتابة فنية أيام
العصر الجاهلى وصدور الإسلام ، والبحث هنا ليس عن اللغة العربية في هذا
الطور المتأخر الذى امتلكت فيه اللغة عافيتها الكمية والكيفية ، وإنما البحث
يتجه إلى منابع اللغة الأولى التى نطق بها الإنسان الأول ، كيف نشأت ؟
وكيف كانت ؟ وهذه هى التى ما تزال الآراء حولها تتضارب وتناقض ،
حتى لتزعم كل أمة أن لغتها القومية هى أصل كل اللغات ، وقد لا يعجزهم
الدليل في كثير من الأحيان .

ثم إن الإجماع على الاحتجاج بلغة القوم ليس صادراً عن كون اللغة
توقيفية أو اصطلاحية ولكنه صادر عن كون اللغة في هذه الفترة الجاهلية
وصدور الإسلام - توحدت في اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم ، وهى
اللهجة القرشية ، ثم عن كون اللغة - في هذه الفترة كذلك - كانت ما تزال
نقية لم يفسدها الاختلاط واللحن ، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم .

٢ - وللرد على الفقرة الثانية : يقال بأن الاصطلاح لا يستدعى تقدم
اصطلاح آخر فالطفل حين يتعلم اللغة عن أبويه لا يكون عالماً بمعانى
الألفاظ ولا بحقائق الاصطلاح ، ولكنه يتعلم عن أبويه بالإشارة إلى

(١) أنظر (المزمهر) للسيوطى - ج ١ - ص ١٥ .

المدلول ، وربطه دائماً بالدال ، وبتكرار هذه العملية يقرّ في ذهنه معنى هذا الربط ، والشكل الصوتي - اللغة - الذي يعبر عنه . . كذلك القوم الذين تلقوا اللغة للمرة الأولى ، لقد فهموا بالإشارة والربط والتكرار دون حاجة إلى سابق اصطلاح على لغة مشتركة .

٣ - ولردّ على الفقرة الثالثة : يقال إن الله قادر دائماً على أن يقدرَ واحداً أو جماعة على وضع اللغة عن طريق الاصطلاح ، وقد أقر ابن جنى نفسه هذا المعنى حين قال : (لا ننكر أن يكون الله قد خاق من قبلنا - وإن بعد مداه عنا - من كان أنطف ذهناً وأسرع خواطر ، وأجرأ جناناً) (١) على أن ابن جنى نفسه قال بالاصطلاح اللغوي في مواضع أخرى سنشير إليها من خلال عرضنا للنظرية الاصطلاحية .

وأما الدليل النقلى : فقد استدلل الإسلاميون بقوله تعالى :

١ - (وعلم آدم الأسماء كلها) .

٢ - وقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) .

٣ - وقوله : (إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) .

الردود على الأدلة النقلية : وقد ردّ العلماء على هذه الأدلة النقلية بما يلي :

١ - يرد على الاستدلال بالآية الأولى : (وعلم آدم لأسماء كلها) . بأن هذه الآية لا يتم الاستدلال بها إلا على أن معنى علم : وقف

(١) أنظر (الزهر) للسيوطي - ج ١ - ص ١٦ .

ولتقن . . وأن يراد بالأسماء الألفاظ والمعاني ومفرداتها ومركباتها . . وأن يراد بها قسم الأفعال .

ولكن هذه الوجوه التأويلية غير مسلمة .

فلماذا لا يكون معنى (علم) - كما يقول ابن جنى - أقدره على أن يواضع عليها وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به .

ويقول الراغب الأصفهاني : وقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) تعليم الأسماء هو أن جعل له قدرة بها نطق ، ووضع أسماء الأشياء ، وذلك بإلقائه في روعه وعلى هذا لا يتم ما قالوا لأن المعنى بصير : وأقدر الله آدم على وضع الأسماء فيكون آدم هو الذى وضعها .

ويمكن أن يكون المراد بالأسماء : السمات والخصائص ، كما هو الأصل في معنى الأسماء لأن تفسير الأسماء بالألفاظ اصطلاح نحوي متأخر وإذا كان إطلاقها على الصفات ممكناً في اللغة ، وجب أن يكون هو المراد لا غيره ، لأن التفضيلة في معرفة حقائق الأشياء أكبر منها في معرفة الأسماء .

ولأن التحدى إنما يجوز ويحسن بما يتمكن السامع من مثله ، ولو بقيت الأسماء مراداً بها الألفاظ ، لكان فضل آدم إما لأنه علّم ألفاظاً فرددها وحفظها : وإما لأنه وضع ألفاظاً للأشياء ولاخفاء في أنه كان يمكن للملائكة - أو علموا هذه الألفاظ ورددوها - أن يحفظوها كما نه لا يصبح في العقول أن يفضل شخص بسبب معرفته بعد التعليم على آخر لم يعرف لأنه لم يتعلم . . كذلك ليس مما يمايز به آدم هذا الامتياز ويفضل به على الملائكة أن يضع أسامي الأشياء ، ولهذا كان حمل الأسماء على الألفاظ فقط غير سليم .

٢ - ويرد على الاستدلال بالآية الثانية : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) . بأنه محتمل أن يكون المراد بالألسنة الجوارح المخصوصة ، وباختلافها أن ينشأ الله تعالى مختلفة في الشكل والهيئة والتركيب . فتختلف نغماتها وأصواتها حتى إنه لا يشبهه صوتان من نفسين هما أخوان كما يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية الكريمة .

كما أن إطلاق الألسنة على اللغة مجاز ، فلم لا تطلق الألسنة مجازاً على القدرات والتصورات والإدراكات .

٣ - ويرد على الاستدلال بالآية الثالثة : (إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) . بأن وجه الاستدلال بهذه الآية أن الله ذم الكفار على وضع أسماء أيسر توقيفية . مع أنه يمكن أن يقال إن مدار الذم ليس مجرد وضع الأسماء غير التوقيفية ، بل هو إطلاق هذه الأسماء على الأصنام مع اعتقادهم أنها آلهة أما مجرد إطلاق الأسماء وحده فلا ذم عليه . بدليل أن القرآن الكريم سمي أنواعاً من الأصنام فقال تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثائمة الأخرى) . وقال : (ويفوث ويعرق ونسرا) (١) .

• • •

هذه أدلة الإسلاميين ، وهذا هو مجمل الرد عليها .. أما غير الإسلاميين فقد دفعهم تحيز المسلمين للغة ، ومحاولة رد أصل اللغات إلى العربية لغة القرآن والدين . إلى لون آخر من الجحوح في الطريق المقابلة ، وهي طريق رد اللغات إلى كتبهم المقدس (العبرية) وقد جدّ آباء الكنيسة في هذا الصدد مستدلين بما ورد في سفر التكوين : (والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول . وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى

(١) انظر : (الزهر) للسيوطي - ج - ص ١٧ وما بعدها .

كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان ، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول (١) .

الرد على هذا الدليل :

ويمكن الرد على هذا الدليل بأنه دليل عليهم وليس لهم ، لأن آدم هنا هو الذي سمى الأشياء « ووضح » الأسماء . . . ثم إن هذه الآيات التي سبقت لم تعرض لنشأة اللغة ككل بأسمائها وصفاتها وأفعالها وحروفها . . . وكل ما تعرضت له هو نوع من الأسماء دون سائر الأنواع من أسماء الجمادات والمعاني والأفعال والحروف .

الرد الإجمالي على النظرية التوقيفية :

ويمكن الرد إجمالاً على النظرية التوقيفية في نشأة اللغة :

١ - بأن اللغة لو كانت توقيفية لامتلكت عنصر الثبات البنائي والدلالي والمعجمي ، وهذا غير ملاحظ ولا ملموس . . . وما تزال اللغة تستقبل كل يوم مستحدثات في الألفاظ والتراكيب والدلالات .

٢ - وأن اللغة لو كانت توقيفية لخلت من كثير من العيوب التي فيها ، وهذه العيوب ما تزال قضية مطروحة على مستوى الشكل والمضمون في كل لغات العالم ، التي تبحث باستمرار جادة عن رأب هذه الصدوع في بناء اللغة وفحواها .

٣ - وأن اللغة لو كانت توقيفية لولدت كاملة - منذ البدء - ولكن المشاهد أن اللغة ككل كائن حتى على وجه الأرض ما تزال تكدح في سبيلها إلى الكمال البعيد المنشود .

النظرية الثانية : (اللغة اصطلاحية) :

قال العلماء إن (اللغة اصطلاحية) أوجدتها الإنسان عن طريق المواضعة

(١) سفر التكوين - الإصحاح الثاني - الآية ١٩ وما يليها .

(وهذا رأى فريق من الاصطلاحيين) أو عن طريق المحاكاة (وهذا رأى فريق آخر) .

وقد وقف على رأس القائلين بالمواضعة أبو هاشم الجبائي المعتزلى . . وأبو على الفارسي وأبو الحسن الأخفش في أحد قوليهما .

ووقف على رأس القائلين بالمحاكاة بعض علماء العرب في العصور الوسطى وطائفة كبيرة من العلماء الأوربيين في القرن التاسع عشر :

طريق المواضعة : وقد شرح ابن جني معنى المواضعة في قوله ملخصاً : قالوا وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة أو أكثر فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المحيطة بهم وتكون معلومة لديهم ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولنظماً إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره وأغنى عن إحضاره ، وقد يحتاجون إلى بيان مالا يمكن إحضاره ولا إدناؤه كالفانى واجتماع الضدين على المحل الواحد وكيف يكون ذلك لرجازه فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه . . وقالوا : إنسان . . إنسان . . إنسان . . فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق . . وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد . . عين . . رأس . . قدم . . ونحو ذلك . فتنى سمعت اللفظة من هذا عرف معنيها ، وهكذا فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف .

ثم لك بعد ذلك أن تتمثل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : الذى اسمه إنسان فليجعل مكانه : (مَرْد) أى إنسان بالفارسية . والذى اسمه رأس فليجعل مكانه : (سِرِّ) أى رأس . وعلى هذا بقية الكلام . وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوهمت المواضعة عليها لحاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرها (١) .

(١) انظر : (الزهر) للسيوطى - ج ١ - ص ١٢ - ١٣ .

هذا هو طريق المواضعة كما يراه واحد من علمائنا الكبار ، الذين كانت لهم بصيرة نافذة في دراسة اللغة ، وإذا كان هذا الطريق نيس كل طرق المواضعة ، فإنه يمثل لها تمثيلاً دقيقاً ، ويمطى عن جهود علمائنا العرب في هذا الصدد صورة مقاربة إن لم تكن دقيقة تماماً .

أدلة القائلين بالمواضعة . واستدل علماء اللغة على المواضعة بقولهم :

١ - إن أول اللغة لا بد أن يكون متواضعا عليه والمواضعة لا بد معها من الإيماء والإشارة بالجارحة نحو الموما إليه والمشار نحوه ، والله سبحانه منزه عن الجارحة فلا يجوز أن يوصف بأنه واضع أحداً على شيء وإذن فالإنسان هو واضع اللغة الأولى .

أما غير اللغة الأولى فيجوز أن تكون من الله أو من الإنسان لأنها لا تحتاج إلى مواضعة ، ولا تسلمز إيماء ولا إشارة بالجارحة ، يقول ابن جنى : وجواز هذا منه سبحانه كجوازه من عباده .

٢ - لو لم تكن اللغة مواضعة ، لكانت توقيفية تستلزم ضرورة وجود واسطة بين الله والإنسان لاستحالة أن يخاطب الله البشر مباشرة (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فإذا كان النبي هو الواسطة بين الله والبشر ، فإن معنى ذلك أن وجود هذا النبي سابق على وجود اللغة ، وهذا باطل لقواه تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فاللغة سابقة على البعثة وليس التقيض .

الردود على نظرية المواضعة : وقد ردّ على هذه النظرية بما يلي :

١ - يتوقف التواضع على لغة ما ، على أصوات لغوية : فهل كان لأولئك الحكماء الذين واضعوا على اللغة أصوات لغوية قبل الوضع ؟ وإذا كانت لهم فهى التى نبحت عنها لا ما تواضعوا عليه . وإن لم تكن لهم لغة كاملة أو حتى قريبة من الكمال فكيف استطاعوا أن يضعوا جميع اللغات ، وهى ماهى

ضخامة وتنوعاً ؟ وكيف تسمى لهم أن يعلموها البشر قاطبة على تنوع هؤلاء البشر في ما لا يحصى من اللغات واللهجات والكلمات والعبارات ؟

٢ - هؤلاء الحكماء الذين نصبوا من أنفسهم معلمين للغة ودعاة لها . كيف تسمى لهم الاتصال بغيرهم من الأمم والشعوب ، مع بعد الشقة ، وانعدام أو حتى ضعف وسائل الانتقال في هذا الزمن السحيق ؟

٣ . هذه اللغة الرائعة ، هذه الصورة المعجزة ، هل يمكن أن تكون قد ولدت هكذا تامة النضج أو تكاد ، في فكر هذا الإنسان ، في تلك العصور الضاربة في أعماق السذاجة والقدم ؟

• • •

طريق المحاكاة : يرى أصحاب هذا الرأي أن الإنسان وجد وسط عالم مليء بقوى الطبيعة الصائتة والصامتة ، يتلفت من حوله ، فيرى ويسمع من تفاعل القوى الطبيعية أشياء كهدير الرعد ، وسقوط الأمطار ، وتصادم الأجسام ... ويرى ويسمع من تعاقب الانفعالات على نفس الكائن الحي أشياء كصهيل الخيل ، وعواء الكلب ، ونهيق الحمار ، وهديل الحمام .

ومن حكاية هذه الأصوات على اختلاف مظاهرها ومصادرها ، اقتبس الإنسان لغته الأولى ، فكانت في البدء تقليداً لصوت معين ليدل به على مصدر هذا الصوت أو ما يتصل به . . ثم تدرجت اللغة بالقلب والإبدان والنحت إلى أن صارت ألفاظاً . . ومازالت تتدرج حتى صارت ما هي الآن تركيباً وتعبيراً .

ويرى العلماء أن اللغة وضعت في بادئ الأمر على مقطع واحد مكون من حرف واحد أو حرفين متحرك فساكن ، ثم ضعف الثاني فكان الثلاثي أو ضعف المقطع فكان الرباعي ،

أدلة القائلين بالمحاكاة :

ويستدل أصحاب هذا الرأي بنشأة الطفل . . فهو في البداية يعبر بالصوت عن مصدر هذا الصوت وما يتصل به . . وقد يتجاوز ذلك فيعبر بالصوت الراحدة عن الصورة الذهنية التي انطبعت في ذهنه عن هذا المصدر ، فإن كانت حسنة عبر عنها بشيء يدل على الاستحسان وإن كانت سيئة عبر عنها بما يدل على الاستقباح . . وكثيراً ما يصحب هذا التعبير للماذج كثير من الإشارة التي ما تلبث أن تتوارى حين ينتقل الطفل من طور المحاكاة إلى طور الوعي .

وقد قال بهذا الرأي ابن جنى وغيره من علماء العرب . . وقال به طائفة كبيرة من علماء الغرب . . يقول ابن جنى : (وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح . وحين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل (١)) .

الردود على القول بالمحاكاة : وقد رد على القول بالمحاكاة على النحو التالي :

١- تسخيف فكرة أن يكون الترتيب التاريخي لنشأة اللغات بادئاً بالحيوان والجماد ومنهياً بالإنسان كتملذ لذنين التوعين .

٢ - رفض القول بأن ما صدر عن بعض المخلوقات بلا معنى ، وضعه الإنسان ليعنى شيئاً محدداً ، لأن ذلك لو صح فسيكون معناه أن مالا معنى له في نشأته يصير حقيقياً في فهم المقلد وفي عقل السامع .

(١) أنظر : (المزمهر) للسيوطي . ج ١ - ص ١٤ - ١٥ .

٣- ربما كانت نظرية المحاكاة تكون صحيحة لو أننا كنا نتعامل مع الحيوانات والطيور ولكن الواقع بعيد عن هذه الفرضية البعيدة (١) .

- ٢ -

آراء علماء الغرب

يمكن التركيز في هذا المجال على نظريات أربع في تفسير نشأة اللغة الإنسانية وهي نظريات تمثل جهود اللغويين منذ عصر النهضة حتى الآن . . هذه النظريات هي :

١ - نظرية التقليد الصوتي : ٢ - نظرية أصوات التعجب .

٣ - نظرية الربط الطبيعي بين الصوت والمعنى ه

٤ - نظرية الأصوات الجماعية .

١ - نظرية التقليد الصوتي : نقول هذه النظرية بتقليد الإنسان للأصوات الطبيعية كالرعد ، وتقليد أصوات الخيوانات كذلك .

ويتنقد (رينان) هذه النظرية ، لأننا نضع بها الإنسان في مرتبة تالية لمرتبة الحيوان حيث يقلده ويحاكيه .

ويدفع (جيسرسن) هذا النقد بأن هذه الأصوات عند الحيوان لا تعنى شيئاً غير مجرد كونها أصواتاً . . أما عند الإنسان فهي ذات دلالات محددة ، واستعمالها على هذا النحو مقصور عليه .

٢ - نظرية أصوات التعجب : ونقول هذه النظرية بأن الإنسان بمحض فطرته يندفع إلى إرسال أصوات يعبر بها عما يتخالجه من الفرح

(١) اعتمدنا في هذا العرض لأصول النظريتين ولأدلتهما ولردود الواردة على هذه، الأداة على كتب فقه اللغة التي تكاد تشابه في هذا الصدد غير بعض التقديم والتأخير والإضافة والاجتزاء حتى يمكن أن يقال بأننا هنا مجرد عارضين للرأى ونقيضه وأكثر ما اعتمدنا عليه هو كتاب (المزهر) للسيوطي فقد عرض انقضيه من خلال منهج استقرائى دقيق . أنظر : ج ١ ص ٨ وما بعدها .

والخوف والتعجب وغيرهما من الانفعالات فهو حين يعطس أو يسعل أو يضحك أو يبكي ، يستعمل أصواتا ترسلها فطرته . وترى هذه النظرية أن مثل هذه الأصوات كانت للبدء الأول للغة ، ثم لم يلبث هذا البدء أن تنوع وتعدد وتركب حتى صار إلى ما هو الآن .

ويعترض « جبرسن » بأن هذه الأصوات كما نراها الآن - لا تمثل أى نشاط لغوى ، بل هى مجرد نشاط صوتى لا يمت إلى سياق الخديث بأية صلة . . كما أنها لا تخضع للتفديد اللغوى مما يباعد بينها وبين فكوة كونها أصلا للغة .

٣ - نظرية الربط الطبعى بين الصوت والمعنى : وتقول هذه النظرية إن هناك ارتباطا طبيعيا بين الكلمة وما تدل عليه ، ومن هنا فإن العالم الخارجى بكل مظاهره ينعكس فى سيكلوجية الإنسان بما يقابله من أصوات يرتبط بها ارتباطا طبيعيا .

واعترض على هذه النظرية بأن الحروف فى اللغات مختلفة ، فكيف يحدث العالم الخارجى تأثيرات مختلفة باختلاف اللغات مع أن المفروض أن يعكس تأثيراً واحداً على كل المستويات فالحجر كظهر خارجى لا بد أن يجد صدى فى النفس موثما للحاء والجيم والراء . وليس كذلك الحجر فى الإنجليزية ، فحروفه فيها stone ، ولا يخفى ما بين الأصوات هنا والأصوات هناك من تباين ملحوظ .

٤ - نظرية الأصوات الجماعية : وتقول هذه النظرية إن التنفس الشديد يتطلب قيام الإنسان بمجهود عضلى ويجعل الهواء المار بالحنجرة يحرك الأوتار الصوتية ، فتنج أصواتا مختلفة ، وعندما يزول عدد من الناس عملا شاقا يحدث هذا بشكل جماعى ، فيقولون مثلا: « هيلاهوب » ومن الممكن أن تكون هذه الحقيقية أصلا لنشأة اللغة الإنسانية . ويرى جبرسن : أن هذه النظريات جميعاً لا تنفس سوى جزئيات من النشاط

اللغوى ولا بأس من أن نعرّف بها جميعاً ، على أن لا نجعل إحداها ، أو تجعلها جميعاً المصدر الوحيد الذى نشأت عنه اللغة الإنسانية واو أردنا معرفة أصل اللغة لنتحّم علينا أن ندرس أموراً ثلاثة هي :

١ - لغة الطفل ٢ - لغة القبائل البدائية .

٣ - تاريخ اللغات (١) .

هذه أهم النظريات التى طرحها الفكر العربى والفكر الغربى فى نشأة اللغة وليس معنى ذلك أن قضية البحث فى نشأة اللغات تقف عند هذا الحد من التاريخ . فلقد طرحت القضية نفسها على فلاسفة اليونان القدامى ، فذهب (هيراكليت) ٥٨٠ - ٥٤٠ ق . م إلى القول بأن الالفه وحى وإلهام ، ووجد فى القرن الرابع الميلادى من يدافع عن هذا الرأى على الرغم من معارضة بعض علماء الكنيسة . . . كذلك ذهب (ديموكريت) من فلاسفة اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، إلى القول بأن اللغة اصطلاح (٢) وهكذا نجد أن القضية ليست وليدة اليوم والأمس . وليست كذلك من السهولة بحيث يقطع الباحث فيها برأى جازم ويقينى . . المهم أننا قد استعرضنا أهم ملامح القضية ووقفنا على الخطوط العريضة فى جدلها المؤيد والمعارض . .

ونرجو أن نكون قد أضأنا حتى بقدر ما نستطيع وليس بقدر ما نأمل .

(١) انظر اللغة والتطور / عيد الرحمن أيوب ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية - جرجى زيدان - هاشم ص ١٣١ - ١٣٢

تعليق دكتور / مراد كامل .

اللغات الانسانية (١)

(١)

قسم العلماء أشهر اللغات الإنسانية إلى مجموعتين هامتين :

١ - الفصيلة الهندية - الأوربية .

٢ - الفصيلة الحامية - السامية .

وقد تنبه العلماء إلى ما بين اللغات المندرجة تحت هاتين الفصيلتين من صلوات وصفات قريبة ومشتركة . . . ولكن (ماكس مولر) جاء بتقسيم ثلاثي لا ثنائي للغات فأدخل طائفة من اللغات الآسيوية والأوربية التي لا تندرج تحت الفصيلتين السابقتين كتصنيف ثالث ، وأطلق عليها اسماً اصطلاحياً - نظراً لتنوعها وتباعدها - هو : الفصيلة الطورانية .

(أ) الفصيلة الهندية - الأوربية : . . . (وهي أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً ، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر في الحضارة الإنسانية الحديثة ، ومن العسير تحديد موطنها الأصلي ؛ فمن ذاهب إل نشأتها في آسيا الوسطى بمنطقة التركستان . ومن قائل بنشأتها في المناطق الروسية بأوربة الشرقية ، ومن زاعم أنها في مناطق بحر البلطيق وهي تشمل على ثمان من طوائف اللغات :

١ - اللغات الآرية ، بفرعيها : الهندي والإيراني .

٢ - اللغات اليونانية ، وتشتمل اليونانية القديمة ، واليونانية الحديثة

(١) إمتدنا في هذا الموضوع بشكل مكثف على كتاب : (دراسات في فقه اللغة)

للدكتور مجدى الصالح - و (فقه اللغة) للدكتور على عبد الواحد وأبي .

التي قامت على أنقاض القديمة في القرون السابقة للميلاد ، ولغة اليونان في العصر الحديث .

٣ - اللغات الإيطالية ، وأهم فروعها اللاتينية التي تشعبت منها الفرنسية والأسبانية والإيطالية والبرتغالية ولغة رومانية .

٤ - اللغات الجرمانية ، وأهمها شعبتان : شعبة اللغات الجرمانية الغربية . وفيها الإنجليزية - السكونية ، والإنجليزية الحديثة ، والهولندية والألمانية ، وشعبة اللغات الجرمانية الشمالية ، وهي الدانيمرك والسويد والنرويج .

٥ - اللغات السلافية ، وهي شعبتان : صقلية ، وبلطيقية . فمن الصقلية الروسية والتشيكية والبولونية والبلغارية الحديثة - ومن البلطيقية الليتوانية والبوسنية للقديمة .

٦ - اللغات الأرمنية .

٧ - اللغات الألبانية .

٨ - اللغات الكلتية التي كان ينطق بها شعوب الكلت ، وقد غلبها الآن اللغات - الإنجليزية والفرنسية والأسبانية . وإن بقيت ظواهر منها في لهجات إيرلندا ومنطقة البريتون غربى فرنسا (١) .

(ب) الفصيلة الحامية - السامية : . . . (وليست المناطق التي تشغلها هذه الفصيلة شديدة الاتساع كالمناطق التي تشغلها الفصيلة الأولى ، (الهندية - الأوربية) فلا يعدو ما تشغله بلاد العرب وشمال إفريقيا وجزءاً من شرق إفريقيا ، غير أن مناطقها تكاد تشكل منطقة واحدة

متماسكة الأجزاء ، مستقلة ، ليس فيها عنصر دخيل ، وتلك مزية كبيرة من مزاياها . وهي ذات مجموعتين :

(أ) مجموعة اللغات الحامية ، وفيها المصرية والبربرية والكوشيتية وقد اصطلح على إدخالها في مجموعة واحدة ، مع أن صلات القرابة بينها ضعيفة ، ولذلك يعد بعضهم كل فرع منها مستقلا برأسه على حدة . . واللغة المصرية تشمل المصرية القديمة والقبطية . أما البربرية فهي لغة السكان الأصليين اشمال إفريقيا « تونس ومراكش والجزائر وطرابلس والصحراء والجزر اتناخمة لها » . وأهمها اللغة القبيلية والتماشكية وهي لغة قبائل التوارج « الطوارق » وأما الكوشيتية فهي لغة السكان الأصليين للقسم الشرقي من إفريقية وبها يتكلم نحو ثلث سكان الحبشة . وهناك مناطق في الحبشة تتكلم بلغة سامية (٢)

(ب) مجموعة اللغات السامية وستكلم عن هذه المجموعة السامية يتفصيل أكثر فيما يلي لأن لغتنا العربية تفرعت منها :

فصائل اللغات الإنسانية الأخرى : أما فصائل اللغات الإنسانية الأخرى فمن أهمها :

- ١ - فصيلة اللغات الطورانية : كالتركية والمغولية والمنشورية .
- ٢ - فصيلة اللغات اليابانية .
- ٣ - فصيلة اللغات الصينية : التببئية « ومنها لغة سيام » .
- ٤ - فصيلة اللغات الكورية « لسكان شبه جزيرة كورية »
- ٥ - فصيلة اللغات القوقازية « ويستثنى منها اللغات القوقازية السامية والهندية الأوربية » .

(٣)

بقى أن نتحدث عن تاريخ اللغات السامية . . وخصائصها . . حديثاً يعطى مجرد فكرة علمية لا تغنى بالطبع عن استيفاء النظر إلى القضية في مظانها الحتمية والأصيلة:

والساميون : يطلق الآن على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية والعمانية والبابلية - الآشورية ، وما انحدر من هذه الشعوب .

(ويطلقون اسم اللغات السامية على لغات هذه الأمم وما تفرع منها ؛ وعلى بعض لغات أخرى ظهر لهم انتماؤها إلى الفصيصة نفسها التي تنتمي إليها هذه اللغات فدلولها يشمل اللغات الأكادية « الآشورية - البابلية » والآرامية والكنعانية « الفينيقية والعبرية » والعربية واليمينية القديمة والحبشية . . وأول من استخدم هذا الوصف في إطلاقه على هذه اللغات العالمان الألمانيان « شلوتزو وايكهورن » في أواخر القرن الثامن عشر . ولوضوح الشبه بين أفراد هذه الفصيصة فطن الباحثون منذ عصور سحيقة إلى صلات القرابة التي تربطها بعضها ببعض . فتشابه اللغتين العبرية والآرامية قد بلغ درجة لا تخفى معها قرابتهما حتى على أقل الناس إلماما بهذه الشؤون ، ولذلك فطن كثير من قدامى الباحثين إلى انتمائهما إلى فصيصة واحدة . . وتشابه اللغتين العبرية والعربية ، وإن لم يصل إلى الدرجة السابقة ، قد ظهر للباحثين منذ القرن العاشر الميلادي . ففي هذا القرن أدرك كثير من علماء اليهود وجود القرابة بين هاتين اللغتين وفي القرن السابع عشر اهتدى العلماء في ضوء دراساتهم للغة الكنيسة الحبشية إلى قرابة هذه اللغة باللغة العربية . ولذلك يمكن القول إنه لم ينتصف القرن السابع عشر حتى تكونت لدى المستشرقين فكرة واضحة عن صلات القرابة بين معظم أفراد الفصيصة السامية ، وذلك سابق كثيراً للعصر الذي اهتدى فيه Bopp إلى صلات القرابة . التي تربط اللغات الأوربية بعضها ببعض والتي تربطها باللغات الهندية - الإيرانية وقد كملت هذه الفكرة وازدادت وضوحاً في القرن التاسع عشر . ففي هذا القرن كشف العلماء الخط المسماري وحلوا

الآثار الآشورية المدونة به ، كما كشفوا كثيراً من الوثائق المدونة باللغات الفينيقية واليونانية القديمة ، وفي ضوء هذه الآثار ظهرت صلات القرابة الوثيقة بين هذه اللغات وبقية اللغات السامية ، وبذلك كملت مجموعة اللغات السامية ، وحل كثير من المشكلات العلمية المتعلقة بنشأتها وتطورها وانشعابها بعضها من بعض ، وتكونت مادة غزيرة للبحث والموازنة ، وفي هذا القرن عكف بعض العلماء على دراسة اللهجات العامية المتفرعة عن هذه اللغات - فكان لدراساتهم هذه أجل أثر في نهضة هذه البحوث (١).

أما عن أهم خصائص اللغات السامية فيكفي هنا أن نومي إلى ذلك مجرد إجماء :

١ - يتألف الأصل السامي - في الغالب - من ثلاثة أصوات ساكنة (أى غير لينية) مختلفة (ق ت ل . ض ر ب . رج ع) :
ولكن لكل وجه من هذه الوجوه شواذ :

(أ) فبعض الأصول السامية يتألف من صوتين فقط ، كالحروف أو بعضها : (عن . قد . بل . .) والضماير : (هو . هم . .) وأسماء الإشارة والموصول والشرط : (ذا . مَنْ . .) وبعض أسماء الذوات : (يد . دم . .) .

وهناك أفعال لا يبقى منها إلا حرفان في معظم وجوه تصرفها : (قلت . تلت . .) وهذا يدل على أن المعنى يتوقف في مثل هذه الأفعال على صوتين فقط .

وهناك أفعال أخرى يتعلق المعنى فيها بصوتين فقط ، أما الثالث فيوجه المعنى العام ويحدده ، ففي الأفعال : (فرى . فرم . فرض . فرج . فرق . فرز) يتأدى المعنى وهو هنا التفرقة - بالحرفين : (ف . ر) لأنهما يمثلان صوت الفعل ، أى ما يحدثه من صوت عند وقوعه ، أما الحرف الثالث فيشار به فحسب إلى نوع هذه التفرقة .

(١) د . د . عل عبد الواحد وانى - فقه اللغة من ص ٣-٤ .

(ب) وبعض هذه الأصول السامية يتألف من صوتين ساكنين ،
وصوت لين أو نصف لين : (قال . وعد . .)

(ج) وبعضها يتألف من صوتين ساكنين مضعف ثانيهما : (تمّ .
ردّ . .)

أما الأصول الرباعية أو التي تبدورباعية الأصول - في العربية والعبرية -
فهى متفرعة عن أصول ثلاثية ، ف- (دحرج) مردود إلى (درج) أو
(دحر) لما فيهما من معنى الإبعاد والدفع . وإن كان الصرقيون يعدونها
أصولاً بكاملها .

٢ - لا تكاد توجد من اللغات السامية كلمات لها أكثر من أصل
واحد ، في حين أن هذا يوجد بكثرة في اللغات الهندية - الأوروبية ،
وخاصة الحديث منها .

٣ - للأصوات الساكنة (غير اللينة) في اللغات السامية أهمية تتمثل في
كون المعنى الأساسى للكلمة يشار إليه بها غالباً . ثم هى تنال من عناية
المتكلم قدرأ أكبر . ولذلك يتضح جرسها وتظهر في السمع أكثر من
الأصوات اللينة . ثم إن هذه العناية بدت ليس في النطق فحسب ، وإنما في
الرسم كذلك .

٤ - للفعل في معظم اللغات السامية زمانان . فعل انتهى زمنه (ماضٍ)
وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال أو الأمر) .

٥ - يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية والحامية
بإضافة تاء إلى المذكر .

٦ - تتشابه اللغات السامية في كثير من المفردات وخاصة الدالة على
أعضاء الجسم والضمائر ، وصلة القرابة ، والعدد ، وبعض الأفعال ،
ومرافق الحياة الشائعة في الأمم السامية (١)

(١) انظر : فقه اللغة د / عل عبد الواحد راقى ص ١٢ وما بعدها .

obeikandi.com

مناسبة الحروف العربية لمعانيها

(١)

لاحظ علماءنا القدامى ما فى العربية من مناسبة حروفها لمعانيها ، كما لاحظوا ما فى الحرف العربى من القيمة التعبيرية الموحية ، بحيث يعبر كل حرف عن غرض ، وإذن فالكلمة مجموعة من الأصوات الدالة المعبرة من حيث هى حروف يستقل كل حرف منها بإحداث صوت معين . . وينسحب هذا على الحرف كقيمة صوتية مستقلة ، كما ينسحب على الكلمة كصوت ثنائى ، أو ثنائى ألحق به حرف أو أكثر ، أو ثلاثى مجرد ومزيد ، أو رباعى منحوت ، أو خماسى أو سداسى مشتق أو مقيس (١) .

ففى الحرف : يتم التناسب فى الحرف الواحد - وهو جزء من كلمة - بينه وبين مدلوله بوقوع هذا الحرف على صوت معين ، وإيحائه بالمعنى المناسب ، سواء كان فى أول اللفظ أم فى وسطه أم فى آخره .

(٢)

فما وقع فى أول الكلمة : صعد وسعد ، فجعلوا الصاد ، لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يرى . وهو الصعود فى الجبل والحائط . ونحو ذلك ، وجعلوا السين ، لضعفها لما لا يظهر ولا يشاهد حسا . إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجسد ، لا صعود الجسم . . فجعلوا الصاد لقوتها فيما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين (٢) ومن ذلك قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ

(١) أنظر : (دراسات فى فقه اللغة) د / صبحى الصالح ص ١٤٢ وأنظر كذلك (المقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى) د / زكى نجيب محمود ص ٢٢٠ - ٤٢٧ . فقيه تحليل قيم لأراه ابن جنى فى اللغة . ويرجع أساسا إلى كتاب (المزهرة) للسيوطى . فقد رجع إليه ونقل عنه كل الذين كتبوا فى هذا الموضوع من المحدثين .

(٢) انصاف لابن جنى - ٥٥٢/١

والقضاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس ،
نحو : قضمت الدابة شعيرها (١) ٥

ومن ذلك أيضاً : سدّ وصدّ ، فالسدّ دون الصدّ ، لأن السدّ للباب
يسدّ والمنظرة ونحوها . والصدّ جانب الجبل والوادي والشعب ، وهذا
أقوى من السدّ الذي قد يكون لثقب الكوز ورأس القارورة ونحو
ذلك (٢) ،

(٣)

ومما وقع في وسط الكلمة : التاء ، والطاء ، والدال . في تركيب
(ق ت ر) و (ق ط ر) و (ق د ر) فالتاء خافية مستقلة ، والطاء
سامية متصعدة ، فاستعملتا لتعاديها في الطرفين ؛ كقولهم : قتر الشيء
وقطره . والدال بينهما ليس لها صعود الطاء ولا نزول التاء . فكانت
لذلك واسطة بينهما ، فعبّر بها عن معظم الأمر ومقابلته فقبل : قدر الشيء
لجُماعه ومحرّ نجمه (٣) .

ومن ذلك قولهم : الوسيلة والوصيلة ، والصاد أقوى صوتاً من السين ،
لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل
ليس له عصمة الوصل والصلة بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء
وممارسته له ، وكونه في أكثر الأحوال بعضاً له ، كاتصال أعضاء الإنسان
وهي أبعاضه ونحو ذلك ، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون
المتوسل جزءاً أو كالجُزء من المتوسل إليه ، وهذا واضح ، فجعلوا الصاد
لقوتها ، للمعنى الأقوى ، والسين ، لضعفها ، للمعنى الأضعف (٤) .

(١) الخصائص لابن جني ١ - ٥٤٩

(٢) الخصائص لابن جني ١ - ٥٥٣

(٣) الخصائص لابن جني ١ - ٥٥٤

(٤) الخصائص لابن جني ١ - ٥٥٢ .

(٤)

وما وقع في آخر الكلمة : النضح والنضح ، فالنضحُ للماء ونحوه ، والنضح أقوى من النضح ، قال الله سبحانه : (فيهما عينان نضاختان) ، فجعلوا الحاء لرقبها للماء الضعيف ، والحاء لغلظها لما هو أقوى منه . .

ومن ذلك قولهم قرت الدم ، وقرد الشيء وتقرد ، وقرط تقرط ، فالتاء أخفت الثلاثة : فاستعملوها في الدم إذا جف ، لأنه قصد ومستخف في الحس عن القرد ، الذي هو النبات في الأرض ونحوها ، وجعلوا الطاء وهي أعلى الثلاثة صوتاً (للقرط) الذي يسمع .

ومن ذلك قولهم : الخذا في الأذن ، والخذاء والاستخذاء في الذل ، فجعلوا الواو في الخذا لأنها دون الهمزة صوتاً ، للمعنى الأضعف ، وذلك أن استرخاء الأذن من العيوب التي يسببها ، ويتناهى في استقباحتها وأما الذل فهو من أقبح العيوب وأذهبها في المزاة والسب ، فعبروا عنه بالهمزة لقوتها ، وعن عيب الأذن المحتمل بالواو لضعفها ، فجعلوا أقوى الحرفين لأقوى العيين ، وأضعفهما لأضعفهما (١) .

(٥)

ويرى علماء العرب أن في تقديم ما قدم ، وتأخير ما أخر ، وترتيبها على نحو معين أسراراً مدهشة . . فابن جنى يرى (أن في تقديم ما يضاهاى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهاى آخره ، وتوسط ما يضاهاى أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب) (٢) . . ويمثل ابن جنى لهذه القضية بالمواد : (بحث . صد . جر) ويرى في (بحث) مثلاً أن الباء فيها لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء فيها تشبه محالب الأسد وبرائن الدتب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والتاء

(١) الخصائص - لابن جنى - ١/٥٠٧/٥٢ .

(٢) الخصائص - لابن جنى - ١/٥٥٥ .

للنفت والنبث للتراب ، وهذا أمر تراهم محصلا ، فأى شبهة تبقى بعده ،
أم أى شك يعرض على مثله ؟

(٦)

ويرى علماء العرب كذلك أن اختلاط الحروف وامتزاجها وتقليبها في تركيب ثلاثي تقاليبها الستة المحتملة ، لا يغير من حقيقة دلالة الحرف الواحد من أحرفها دلالة تعبيرية خاصة من خلال صوته وإيقاعه .

ومن ذلك ما ذكره ابن جني من (ازدحام الدال ، والتاء ، والطاء ، والراء ، واللام والنون ، إذا مازجتهم الفاء على التقديم والتأخير فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما) (١) . . . ومن شواهد ابن جني على ذلك : الشيء التالف ، والشيخ الدالف ، (الضعيف) والدنف المريض ، والفتور للضعف ، والطفّل للرخص ، وهو ضدّ الشن . . . فالفاء أعطت بممازجتها الدال ، والتاء ، والطاء والراء ، واللام ، والنون ، هذه الوجوه من التقاليب الستة المعروفة في (الاشتقاق الكبير) .

وقد ألف ابن سينا كتاباً في هذا الصدد سماه (أسباب حدوث الحروف) ذكر في خلاله أن كل حرف من الحروف الهجائية يحكي صوتاً من أصوات الطبيعة ، (فالعين) تشبه ذلك الصوت الذي ينبعث من إخراج هواء بعنف من مكان رطب (والقاف) تسمع مثلها من فلق الأجسام وشقّها (والشين) من نفوذ الرطوبات بقوة من خلال أجسام يابسة ، (والراء) من تدحرج كرة على لوح . . . ويستطرد ابن سينا ليذكر بقية الحروف وما يقابلها من الأصوات الطبيعية .

(٧)

هذه لمحة دالة على آراء العلماء العرب في المناسبة بين (الحرف) وبين

مدلولاه سواء كان هذا الحرف في أول اللفظ ، أم في وسطه ، أم في آخره . . . يبقى أن نتأمل أبعاد هذه (المناسبة) بين (اللفظ) وبين مدلوله ، فيما سمى في الدراسات اللغوية بالنظرية الثنائية والثلاثية، مع عرفاننا الوهلي بأن ما تقدمه في مثل هذا الحيز المحدود يمكن أن يشكل مجرد إشارة إلى حقيقة القضية وأبعادها الكمية في تراثنا القديم والحديث .

وإذا كان العلماء قد لاحظوا القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، ودلالته في الكلمة على معناه ، فقد لاحظوا كذلك القيمة التعبيرية ، للحرف مع الحرف في لفظ ثنائي ، على القول بثنائية اللفظ العربي ، ولاسيما في نشأته الأولى ، والمناسبة القائمة كذلك .

والثنائية كما تصورها القائلون بها :

١ - ثنائية تاريخية ذات مقطع واحد .

٢ - ثنائية معجمية مضعفة ، ضعف حرفها الثاني فأصبحت ثلاثية بواسطة الشدة ، أو - مضاعفة كرر مقطعها بكلا حرفيه ، فأصبحت رباعية بطريق المضاعفة والتكرار (١) .

(٨)

وترجع الثنائية التاريخية عند أكثر القائلين بها ، إلى تفسير نشأة اللغة الإنسانية بمحاكاة الأصوات الطبيعية ، كأصوات الحيوان ، أو مظاهر الطبيعة أو التعبير عن بعض الانفعالات والأفعال التي تحدث عند وقوعها أصواتاً معينة : (فالكلم وضعت في أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن ، محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم قُثمت - أي زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر ، أو القلب ، أو الطرف - فتصرف المتكلمون بها تصرفاً مختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات والأهوية ، فكان لكل زيادة ، أو حذف ، أو قاب أو إبدال ، أو صيغة ، معناة ، أو غاية ،

(١) أنظر : دراسات في فقه اللغة - د : صبحي الصالح ص ١٤٧ .

أو فكرة دون أختها ، ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته
إليهم الطبيعة ، أو ساقهم إليها الاستقرار والتبع الدقيق وفي كل ذلك من
الأسرار والقوامص الآخذة بالألباب ، ما تجلت بعد ذلك تجلياً بديعاً استقرت
على سنن وأصول وأحكام لن تزعزع . (١) .

وقد ارتضى غير قليل من علماء العربية هذا الاتجاه بقول ابن جنى
(وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات
المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحج
الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، وفزيب الظبي ، ونحو
ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح
ومذهب مقبل) (٢)

ويوضح ابن جنى هذا الرأي أكثر ، ويخصه ببحث عنوانه : (باب
في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) ويستهل هذا الباب بقوله : (اعلم أن
هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته
الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته . قال الخليل كأنهم توهموا في
صوت الخندب استطالة ومدا فقالوا : صَّص . وتوهموا في صوت
البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر . وقال سيبويه في المصادر التي جاءت
على الفَعْلَان : أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو النَّقْرَان ، والغَلْيَان ،
والغَلْيَان . فقابلوا بتوالي حركات المثال توالى حركات الأفعال . .
ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه ، ومنهاج
ما - مثلاً ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو
الزعزعة والمقلقة ، والصلصلة والقعقة ، والخرجرة ، والقرقرة . . .

(١) نشوء اللغة ونموها واكتسابها - الأب أنستاس ماري الكرمل - ص ١ .

(٢) ابن جنى - الخصائص - ١ - ٤٤ - ٤٥ .

ووجدت أيضاً (الفَعَلَى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة نحو
الْيَشْكَى ، والحمزى ، والولقى (١)

ومن ارتضى هذا الظاهرة عباد بن سليمان الصميمى ، أحد علماء
المعتزلة في عصر المأمون فقد ذهب (إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة
طبيعية حاملة للواضع على أن يضع) قال : (وإلا لكان تخصيص الاسم
المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح) (٢)

وهكذا يؤكد عباد أن المناسبة إهنا ذاتية موجبة لا تتخلف ، تغنى في
فهم المدلول عن العلم بالوضع وعلماء العربية على غير هذا الرأى .
فالعلم بالوضع مهم لشدة الإيهام في بعض المناسبات ، يقول السيوطى :
(وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ
والمعاني ، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد ، أن عباداً يراها
ذاتية موجبة ، بخلافهم ، وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصلح في
أفعال الله تعالى وجوباً ، وأهل السنة لا يقولون بذلك مع قولهم :
أنه تعالى يفعل الأصلح لكن فضلاً منه ومنه لا وجوباً ، ولو شاء لم
يفعله) (٥)

على أن ابن جنى يظل رائد اللغويين الذين لاحظوا هذا الظاهرة .
وقرروها فهو يقول : (فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث

١ - ابن جنى - الخصائص - ٥٥٤/١١ - والبشكى : امرأة بشكى اليدى و البمل خفيفة
سريعة . والحمزى حمار حمزى سريع . والولقى : عدو لثقة فيه شدة وأنظر (المزهري) للسيوطى
ج ١ - ص ٤٨ .

٢ - المزهري - للسيوطى - ٤٧/١

٣ - المزهري - للسيوطى - ٤٧/١ - ٤٨

(م ٤ - عن اللغة والأدب)

فباب عظيم واسع ، ونهج متشعب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمث الأحداث المعبر بها عنها فيعد لونها بها ، ويحتدونها عليها ، وذلك أكثر مما تقدّره ، وأضعاف ما استشعره ٠٠٠ ومن ذلك : القدّ طولا ، والقطّ عرضاً ، وذلك أن الطاء أخفض للصوت ، وأسرع قطعاً له من الدال ، فجعلوا الطاء المنجزه لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال المعاطلة لما طال من الأثر ، وهو قطعه طولا (١)

(٩)

أمّا الثنائية المعجمية فمعناها أن كثيراً من المواد الثلاثية والرابعة مما ورد الاستشهاد به في الثنائية التاريخية ، يرجع إلى أصول ثنائية ، زيد عليها صوت أو أكثر ، وبقيت هناك جوامع معنوية مشتركة بين الأصل المجرد والصيغة المزيّدة ، مما يوحى بوحدة الأصل الثنائي ونجى الزيادات المجرد لإضافة فارق معنوي جديد ، وإن بقي المعنى الأصلي بجوهره محتفظاً به (٢) .

يقول الأب أنستاس مارى الكرملى : (فممن قال بها ولم يجد عنها قيد شعرة الأصهبهاني صاحب كتاب (غريب القرآن) فإنه بنى معجمه على اعتبار المضاعف هجاء واحد ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال ، لامن وضع العلم والتحقيق ، أى أنه إذا أراد ذكر (مد) يمدّ مدّاً) مثلاً في سفره ، ذكرها كأنها مركبة من مادة (مد) أى ميم ودال ساكنة ، ولا يلتفت أبداً إلى أنها من ثلاثة أحرف ، أى (م د د) كما يفعل سائر اللغويين ، ولهذا السبب عينه يذكر (مدّ) قبل (مدح) مثلاً ،

١ - الخصائص - لابن جنى - ١/٥٤٩ - ٥٥٠ وانظر (المزهرة) للسيوط

ج ١ - ص ٥٠ - ٥١

٢ - انظر : دراسات في فقه اللغة - د : صبيح الصالح - ص ١٠٣٢

ولا يقَدِّم هذه على تلك، على ما نشاهده في معظم معاجم اللغة كالقاموس ،
ولسان العرب وأساس البلاغة . وتاج العروس وغيرها (١)

ولاحظ الأب مرمجى الدومنى أن (المضاعف العربى الذى يقال :
أنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية لا تجد مقابلة فى السريانية إلا بحرفين
اثنين لا أكثر . مثلاً مقابل مَصَّ = مَصَّص . وبجذاء حَمَّ حَمَّ حَمَّ وبإزاء
مَسَّ = مَسَّس . وهكذا كل المضاعفات التى هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى
وارد فى كل الساميات متصفاً بمعنى حقيقى تام) (٢)

وهذا بدعم الرأى الناهب إلى ثنائى أصول العربية ، وردّ الثلاثيات
إليها .

وابن فارس فى (المقاييس) يردّ أصل (باب القاف والطاء وما يثلثهما)
إلى معنى القطع فىراه فى (قطع) الذى يدل على الصرم وإبانة شئ ،
و (قطف) الذى يدل على أخذ ثمرة من شجرة ، وفى (قطل) الذى
يدل على قطع الشئ ، وفى (قطم) الذى يدل على قطع الشئ أيضاً . .
فالأصل فى كل هؤلاء هو القاف والطاء (قط) أما العين والفاء واللام
والميم فقد جاءت زائدة على الأصل الثنائى ، لتخصص معنى القطع وتنوعه
بين الصرم والأبانة والأخذ وتردده تبعاً لأصواتها بين درجات الشدة
والغلظة فى إحداث القطع . (٣)

وهكذا يفعل ابن فارس فى (باب الفاء والراء وما يثلثهما) فهو
يردّ الأصل إلى معنى التمييز والإفراد ، ليصير تفتحاً فى الشئ وشقاً
فى (فرج) بسبب الجيم ، وتوحداً فى (فرد) بسبب الدال . وعزلاً
للشئ عن غيره فى (فرز) بسبب الزاى . وبمعنى الدق فى (فرس)
لمكان السين . وبمعنى اقتطاع شئ عن شئ فى (فرص) بواسطة الصاد .

(١) فشوه اللغة ونموها واكتهاها - ص ٢

(٢) من كلمة القاها فى مجمع اللانة العربية بالقاهرة

(٣) انظر : مقاييس اللغة - لابن فارس - ١٠١/٥ - ١٠٢

وبمعنى تأثير شيء في شيء من حزاً أو غيره في (فرض) لصوت الضاد. وبمعنى إزالة شيء عن مكانه وتنحيته عنه في (فرط) لقوة الطاء . وبمعنى التمييز والتزييل بين شئين في (فرق) للأصنيل المجهور المقلقل في القاف . (١)

وإذا كان المعاصرون قد اظنوا إلى أن موقع الحرف الزائد على الثنائي - تنوعاً للمعنى ، وتحديداً للفارق - يغلب أن يكون تذيلاً للكلمة ، وإن جاء أحياناً في وسطها وتصديراً في أولها ، فإن جهود الباحثين اللغويين المتقدمين في الفروق الدقيقة التي أوضحوها على النحو السالف ، هي التي مهّدت للمعاصرين أن يصلوا إلى هذه النتائج (٢)

(١) انظر : مقاييس اللغة - لأبن فارس - ٤/٤٩٨ - ٤٩٩ .

(٢) أنظر دراسات في نغم اللغة د : صبحي الصالح - ص ١٥٨ . ويمكن أن نقول

إن هذا الكتاب كان دليلنا هنا حتى في الرجوع إلى المصادر القديمة د

دوران المادة حول معنى واحد ودوران تقليباتها

رأى كثير من علماء اللغة أن الألفاظ التي تتقارب في الشكل تتقارب كذلك في المعنى ، وذهبوا في ذلك إلى أنها جميعاً تنويحات على أساس واحد هو الأصل اللغوي (١) .

والاشتقاق بأنواعه : (الأصغر ، والكبير ، والأكبر) يبرز هذه الظاهرة على نحو من التجسد والتحديد ، فهو يعطي أصل الكلمة ، ويعطي أنواع التغييرات التي يمكن أن تدخل على هذا الأصل بالاشتقاق. ومع ذلك تبقى هناك علاقة معنى واضحة بين كل هذه التصاريف على اختلافها وتنوعها .

وقد ذهب بعض علمائنا إلى إنكار وقوع الاشتقاق بأنواعه كافة ، زاعمين (أن الكلم كله أصل ، . . . في حين ذهب آخرون إلى القول بأن (كل الكلم مشتق) . . . ولكن الرأي المعتدل والصوابي هو مارآه السيوطي من أن (بعض للكلم مشتق ، وبعضه غير مشتق) (٢) ولا حاجة إلى الإسراف هنا أو هناك .

والاشتقاق الأصغر : هو أن يرتبط كل أصل ثلاثي في اللغة العربية بمعنى عام وضع له ، فيتحقق هذا المعنى في كل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه فالمعنى العام للعلم مثلا ، وهو إدراك الشيء وظهوره ووضوحه ترتبط بأصوات العين واللام والميم ، فيتحقق في كل كلمة توجد فيها هذه الأصوات الثلاثة مرتبة على هذه الصورة مهما تخللها أو سبقها أو لحقها من أصوات أخرى لينة أو ساكنة

(١) انظر : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية - بلرجى زيدان - ص ٥٩ .

(٢) الزهر ١ / ٣٤٨ .

فيتحقق في علم ، علمنا ، أعلم . نعلم . أعلمى ، علم ، علموا ، يعلم ،
 نعلم . تعلم ، تعلموا ، تعلم ، تعلموا ، علم ، علامة ، معالم ، أعلام ،
 علامات ، معلم . معلم ، الخ (١) وهذا النوع من الاشتقاق هو أكثر الأنواع
 ورودا في العربية : (وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة . حتى يرجع
 منها إلى صيغة هي أصل الصيغ كلها دلالة اطراد أو حروفا غالبا ، كضرب
 فإنه دال على مطلق الضرب فقط ، أما ضارب ، ومضروب ويضرب ،
 وأضرب . فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفا ، وضرب الماضي مساو حروفا
 وأكثر دلالة وكلها مشتركة في (ض رب) وفي هيئة تركيبها) (٢) أى أن
 أهم ما يميز الاشتقاق الأصغر هو ارتداد التصاريف المختلفة إلى معنى جامع
 مشترك يغلب أن يكون واحدا (٣) .

ون أنواع هذا الاشتقاق نوعان لم يتوسع العرب فيهما توسعا كبيرا ،
 ولكن مجمع اللغة العربية استخدمهما قياسا للحاجة إليهما ، وهما :

١ - الاشتقاق من أسماء الأعيان ، نحو : استحجر الطين ، واستنسر
 البغاث واستنوق الحمل ، واستأسد الرجل ، وقاس المجمع عليها : بمغظ ،
 وموصق . ومكهرب الخ .

١ - المصدر الصناعي ، وهو ما يتكون بزيادة ياء النسب والبناء على
 اللفظ للتعبير عن المعنى الحاصل بالمصدر ، مثل : الرجولية ، والألوهية ،
 الربوبية ، فقد قاس عليها المجمع واستعمل مثل : الغبائية ، والذكائية ،
 والانهزامية ، الخ .

والاشتقاق الكبير : هو أن ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات

(١) انظر : فقه اللغة : عل عبد الواحد راق ص ١٧٢

(٢) السيوطي - المزهري - ٣٤٦/١ .

(٣) انظر : دراسات في فقه اللغة د : صهيي الصالح - ص ١٧٦ .

بعض المعاني ارتباطاً مطلقاً غير مقيد بترتيب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبط بها كيفما اختلف ترتيب أصواتها (١) :

ويذكر ابن حني مثالا للاشتقاق الكبير أورد فيه تقاليد المادة الثلاثية :
 (م س ل) ورأى أن (س م ل) و (م س ل) و (س ل م) و (م ل س)
 و (ل م م) و (ل م س) مهما تقلبت واختلف ترتيبها الصوتي ، فإن :
 (المعنى الجامع لها المشتمل عليها . - الإصحاح والملاينة : منها الثوب
 (السمل) وهو الخلق ، وذلك لأنه ليس عليه من الوبر والزئبر ما على
 الحديد ، فاليد إذا مرت عليه للمس لم يستوقفها عنه حدة المنسج ولا خشنة
 الملمس ، و (السمل) الماء القليل ، كأنه شيء قد أخلق وضعف عن قوة
 المضطرب وجمة المرتكس ... ومنها (السلامة) وذلك أن السليم ليس فيه
 عيب تقف النفس عليه ولا يعترض عليها به . ومنها (المسل) و (المسيل)
 كله واحد ، وذلك أن الماء لا يجري الأفي مذهب له ، وإمام منقاد به ،
 ولو صادف حاجزا لاعتاقه فلم يجد متسربا معه . ومنها (الأملس) والمساء .
 وذلك أنه لا اعتراض على الناظر فيه والمتصفح له ومنها (اللمس) وذلك
 أنه أن عارض اليد لشيء حائل بينها وبين الملموس لم يصح هناك لمس ،
 وإنها هو إهواء باليد نحوه ، ووصول منها إليه ، ولو كان هناك حائل
 لا استوقف به عنه . . . فأما (ل م م) فمهملة ، وعلى أنهم قد قالوا :
 نسمت الريح إذا مرت مرأ سهلاً ضعيفاً ، والنون أخت اللام (٢) :

الاشتقاق الأكبر : هو أن ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من
 الأصوات ببعض المعاني ارتباطاً غير مقيد بنفس الأصوات بل بنوعها
 العام وترتيبها فحسب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبطة به

(١) انظر : فقه اللغة - د : هل عبد الواحد وأبي من ١٧٤ .

(٢) الخصائص - ١ / ٥٢٩ - ٥٣٠ .

منى ورت مرتبة حسب ترتيبها فى الأصل ، سواء أبقيت الأصوات ذاتها أم استبدل بها أو ببعضها أصوات أخرى متفقة معها فى النوع . ونعنى بالاتفاق فى النوع أن يتقارب الصوتان فى المخرج أو يتحدان فى جميع الصفات ماعدا الاطابق (١) .

فمن أمثلة التقارب فى المخرج : تناوب اللام والراء فى (هدىل) الحمام ، و (هدىره) وتووب الواو والميم فى (أو شاج وأمشاج) . وتناوب الباء والميم فى (لازب ولازم) .

ومن أمثلة الاتفاق فى الصفات ماعدا الاطابق : تناوب الصاد والسين فى (ساطع وصاطع) و (سقر وصقر) و (سخرة وصخرة) . ويرجع السبب فى كثير من هذا التناوب إلى اختلاف القبائل فى طريقة النطق بأصوات الكلمة .

وقد يختلف - فى هذا الباب - مدلول الكلمتين بعض الاختلاف مع بقاء المعنى العام للمادة مشتركاً فيما . مثل (أَرَّ وهز) فالأز معناه الإزعاج والإفلاق . فهو مشترك مع الهز فى المعنى العام للمادة ، وإن كان أقوى منه فى الدلالة على هذا المعنى وأعظم رقماً فى النفس عندما يراد التعبير عن آثار نفسية ذات بال ... وقد تحدث ابن جنى فى باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) عن هذه القضية فقال : وهذا باب واسع ، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » .

أى تزعجهم وتقلقهم ، فهذا فى معنى تهزهم هزا ، والهمزة أنخت

(١) انظر - فقه - دكتور / طل عبد الواحد واتى ص ١٧٨ . والمزهر لسوطى ١ / ١٦٤ - ١٦٥ .

الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصموا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز لأنك قد تهز مالا بال له كالجدع وساق الشجرة ومحور ذلك . ومنه العسف والأسف ، والعين أخت الهمزة . . . فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين (١) .

obeikandi.com

الاقتراض اللغوى ومظاهره فى العربية

من أهم المزايا التى حفظت على العربية شخصيتها بين أخواتها من اللغات السامية ، مع بعدها عن الشعوب الأعجمية ، وثوقها بمقدرتها الذاتية على التعبير ، وعلى التمثل والتوليد ، وعلى التخير والانتقاء وعلى الأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر ، ليس بين اللهجات العربية وحدها ، وإنما بينها وبين اللغات التى اتصلت بها من هنا أو هناك .

من هذا المنطلق ، فإن العربية لم تجن فى معركة المواجهة بينها وبين غيرها من اللغات . . . لقد أقرضت غيرها أشياء كثيرة ، واقترضت هى من غيرها أشياء كثيرة كذلك ، وهذه هى أهم ملامح اللغات الحية الفاعلة .

ففى الجاهلية عرب عن الفارسية مثل : الدولاب ، والدسكرة ، والكحك ، والسמיד ، والحلنار . وعن الهندية أو السنسكريتية مثل : الفلفل ، والجاموس ، والشطرنج . . . وعن اليونانية مثل : القبان ، والقنطار ، والترياق (١) هـ

وقد ورد فى القرآن الكريم من معربات الجاهلية كثير ، حـ قال ابن جرير : (فى القرآن من كل لسان) وذكر السيوطى فى « المتوكلى » نماذج مما ورد فى القرآن بالرومية (كالتسطاس فإنه بالرومية الميزان) . وبالفارسية (كالاستبرق فإنه بالفارسية الديباج الغليظ) وبالعهدية (مثل طوبى اسم الجنة بالهندية) . وبالسريانية (مثل السرى فإنه بالسريانية النهر) وبالحبشية (مثل الأرائك فإنه بالحبشية السرر) وبالنبطية (مثل عجل لنا قطا أى كتابنا بالنبطية) وبالعبرية (مثل كفر عنهم سيئاتهم فإنه بالعبرية امح عنهم)

(١) أنظر المصطلحات العامة - للائير مصطفى الشهابى ١٧ .

وبالتزكية (مثل غساق فإنه بالتركية الباراد المتن) ومع أن بعضه ليس صحيح النسبة إلى إحدى اللغات المذكورة ، فإن السيوطي كان له فضل توجيه النظر هذه الوجهة الجديدة التي لا ترى في تعريب القرآن الكريم للأعجمي خطرا ، بل تجده فيه مزية له على الكتب السابقة (١) .

ومع ذلك . فالنضوية خلافية بز العلماء العرب ، فيما يرى فريق من هؤلاء العلماء أن هذا لاتجاه من (خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزل) (٢) يرى بعضهم أن (من زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول) (٣) وبذهب فريق ثالث إلى التوفيق بين الرأيين (وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال النحهاء ، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ثم نزل القرآن الكريم وقد اختلطت الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال إنها أعجمية فهو صادق) (٤) .

ويشرح الجواليقي : هذا النص السابق لأبي عبيد القاسم بن سلام ويوضح اتساقه وعدم تناقضه ، فيقول : (هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل . . . ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعربته ، فصار عربيا بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحال أعجمية لأصل) (٥) .

ولكن العربية مضت في طريقها غير آبهة بمن يعترض طريق التطور ،

(١) انظر دراسات في فقه اللغة - د / صبحي الصالح ص ٢١٦ .

(٢) نسب السيوطي هذا القول إلى ابن النقيب .

(٣) نسب السيوطي إلى أبي عبيدة .

(٤) قارن الزهر ٢٦٩/١ بالمهذب ١/٨ والصاحي ٢٩ - وانظر : صبحي الصالح .

(٥) العرب - للجواليقي - ص ٥ .

فاحتضنت الكثير من المصطلحات المعربة حين احتاجت إلى ذلك في عصر المأمون لتعبر عما تريد في مجال الطب والطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والفلسفة ، تعبيراً علمياً دقيقاً (١) .

وقد نلخص الأمير مصطفى الشهابي القواعد التي اتبعها النقلة في وضع المصطلحات في تلك الأيام فرأها لاتخرج عن هذه الوسائل الأربع :

١ - تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية ، وتضمينها المعنى العلمي الجديد .

٢ - اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد .

٣ - ترجمة كلمات أعجمية بمعانها .

٤ - تعريب كلمات أعجمية بمعانها .

٥ - وقد خضعت هذه الكلمات الوافدة للونين من ألوان التعديل في أساليبها الصوتية حتى تتوافق مع القواعد الصوتية للغة العربية ، هذان اللونان هما : تعديل في الأصوات بالزيادة أو بالحذف أو بالاستبدال . . وتعديل في الوزن مبنى على التعديل في الأصوات .

ولكن ينبغي في هذا الصدد - ملاحظة أن كثيراً من الكلمات الأعجمية التي دخلت اللغة العربية ، يوجد لها نظائر في مفردات هذه اللغة العربية ، أو فنقل يمكن أن يشتق لها نظائر من مفردات هذه اللغة العربية .

والسبب في ارتضاء هذه الكلمات الوافدة أول الأمر ، وعدم

(١) أنظر : دراسات في فقه اللغة ذ : صبحي الصالح ص ٣١٤ - ٣٢٧ .

(٢) أنظر : المصطلحات العملية - ص ٣٤ - ٢٤ .

استعمال نظائرها أو اشتقاق نظائرها أن حركة الترجمة من العلوم اليونانية والهندية كانت قد بدأت حين أخذ عهد الفصحاء في الانقراض من الأمصار فتولى هذه الترجمات بعض مستعربة الأعاجم ممن لم تستحصد ملكاتهم اللغوية العربية ، لنزل هذه العلوم والفنون ، فعجزوا عن إيجاد مرادفات عربية ، أو اشتقاق مرادفات جديدة ، فنقلوا كثيراً من الأسماء الحيوانية والنباتية . وكثيراً من المصطلحات العلمية والفنية بصيغتها الأعجمية (١) .

وينبغي كذلك ملاحظة أن بعض المفردات المعربة قد تغلب على مرادفه العربي لرقته وشيوعه ، (كالورد والرجس والياسمين والمسك) فقد قضت على نظائرها العربية : (الجوجم والقهبر والسمسق والمشموم) (٢) .

على حين أن بعضها الآخر قد عجز عن منافسة مرادفة العربي فقل استعماله : (كالبوص والخردقة والقيروان والسجنجل والموزج والقومس) وشاع مرادفة العربي (السفينة والرغيف والجماعة من الخيل والمرأة والخف والأمير) (٣) .

وقد عنى علماء اللغة بتمييز الكلمات الدخيلة وحصرها : وألفوا في ذلك مؤلفات على حدة .

ووضع بعضهم علامات يميز بها كثير من الكلمات الدخيلة ، ومن هذه العلامات أن تكون الكلمة مخالفة للأوزان العربية : « ابريسم ، خراسان ، آمين ، جبريل » أو أن تكون فاؤها نونا وعينها راء « نرجس ، نرد ، نرجيل ، أو أن تنتهي بدال فزاي : « مهندز وقد قلبت زاية

(١) أنظر فقه اللغة د / عل عبد الواحد وافي ص ١٩٦ .

(٢) أنظر الجزء الأول من مجلة مجمع اللغة ٢١٦-٣٢٧ والجزء الأول من المزهري للسيوطي

١٢٦ - ١٣٧ .

(٣) أنظر فقه اللغة د / عل عبد الواحد وافي ص ١٩٧ .

سينا في تعريبها « أو أن تشتمل على الجيم والصاد : « جص ، صنج ، صولجان » أو على الجيم والقاف : « المنجنيق ، الخوقة ، الخواتق ، وهي وعاء الجردقة وهي اسم للرغيف ، الجر موق وهو ما يلبس فوق الخلف ، الخوستق وهو القصر ، جلق وهو موضع بالشام » .

أو أن تكون رباعية أو خماسية مجردة من حروف الذلاقة التي تجمعها قولك « مريشقل » . « جوسق » (١) .

obeikandi.com

عن المعجم العربي

(المعجم : كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة ، مقرونة بشرحها وتفسيرها على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً ، إما على حروف الهجاء أو الموضوع ، أو غير ذلك . . . والمعجم الكامل هو الذى يضم كل كلمة فى اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها) (١) .

وكان الصينيون من أسبق الأمم إلى وضع المعاجم اللغوية . وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ألف (باوتشى) معجماً ضمّ ، (٤٠٠٠٠) كلمة . أما أقدم معجم لاتينى فقد ألفه (وارو) المتوفى سنة ٢٨ قبل الميلاد . . . وقريباً من هذه الفترة ظهر أقدم معجم للغة (هوميروس) أغه (أبولونيوس) الغراماطيقى الاسكندرى (فى زمن (أوغسطس) . . ثم ظهر معجم اللغة اليونانية كاملا سنة ١٧٧ للميلاد ، ألفه (يولوس بولكس) . . ثم ألف العرب وكانوا أسبق الأمم الحديثة تأليفاً فى المعاجم اللغوية . (٢)

فحين جاء الإسلام ، وهو بطبيعته (دين فتح وشمول) انساح المسلمون بقرآتهم الكريم فى شتى الجهات والبيئات . . حينذاك خيف على اللسان العربى المبين أن تلحقه عجمة الاختلاط فيتعرش النطق القرآنى الصحيح على شفاه المسلمين ، وتضيق خصائص العربية فى طوفان اشتباكها الحتمى مع اللغات الكثيرة الأخرى التى وقعت شعوبها فى قبضة هذا الإسلام الفاتح الجديد ، فنشرت طائفة إلى جمع المعجم العربى التمتى ، وتحوطت فى ذلك إلى أبعد الآماد . ولكن يبدو أن زحف التطور كان أقوى .

(١) انظر الصحاح ومدارس المعجمات العربية - أحمد عبد الغفور عطار ص ٥٣ (والمعجم)

للككتور عبد الله العزازى .

(٢) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية - جرجى زيدان - ج ٢ ص ٣٠٦

(٥٣ - عن اللغة والأدب)

وإذا كان العرب - قبل عصر الخليل بن أحمد (١٨٠ هـ) - لم يعرفوا الشكل المعجمي الذي نعرفه نحن اليوم ، فإن حاجتهم إليه في هذه المراحل لم تكن بأقل من حاجاتهم إلى أشياء أخرى كثيرة ، وربما أسعفهم في ذلك رجوعهم إلى الرواة وحفظه الشعر الذي كانوا يوثقون فتاواهم في هذا الصدد بما أثر عن العرب من شعر صميم ، وهو صنيع يقرب من الصنيع المعجمي وإن كانت صفحاته أدمغة القوم وليس ورق المعجمات ولكن ذلك يؤكد بوضوح رسوخ الحسّ المعجمي عند هؤلاء العرب من قديم .

(وكان الرواة كحمّاد والأصمعي وأبي عبيدة وغيرهم يروون ما سمعوه أو يأخذونه عن سماعه ويدونونه أو ينقلونه . ويدخل في ذلك أشعار العرب واختبارهم وأمثالهم وألفاظهم وعلومهم وآدابهم . ودوّنوا ذلك أولاً في كتب مستقلة . كل موضوع على حدة ، ككتاب الإبل وأسماها الوحوش وخلق الإنسان والخليل والشاء والنبات والشجر والتخيل وغيرها للأصمعي وكتب اللبن والمطر لأبي زيد الأنصاري ونحوها .

ويلحق ذلك ما ألقوه من كتب النوادر في اللغة ، وهي تشتمل على النادر استعماله من الألفاظ ودلالاتها ككتب النوادر للكسائي وأبي زيد والسيباني والقالبي . وكتب الغريب في اللغة ، كغريب أبي عبيد والسيباني وابن الأعرابي ، وشروح الشعر فإن فيها كثيراً من الألفاظ المشروحة مع بيان أحوالها اللغوية ، وسائر الكتب التي تبحث في اللغة واشتقاقها وألفاظها ، وكذلك كتب الأضداد والأشباه والنظائر ومن هذا القبيل كتاب - الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٧ هـ . وكتاب البارع للقالبي . وأبنية الأفعال لابن القوطية ، ومنها كتاب « ديوان الأدب » لإسحق ابن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . خال الجوهري ، صاحب تاج اللغة جعله على ستة كتب أولها في السالم ، والثاني في المضاعف . ٣ - المثال .

٤ - ذوات الثلاثة . ٥ - ذوات الأربعة . ٦ - كتاب الحمزة . وجعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين : أسماء وأفعال وقدم الأسماء على الأفعال واستشهد بالأشعار . ومن هذا الكتاب نسخ خطية في لندن وأكسفورد وفي المكتبة الخديوية في ٣٠٠ صفحة خط قديم .

فهذه الكتب وأمثالها كانت عوناً كبيراً في تأليف المعاجم ، على أن الذين ألفوا المعاجم رجعوا أيضاً في التحقيق إلى سماع الألفاظ من العرب العاربة أه من سمعها عنهم) (١) .

ويدهى أن كل العرب لم يكونوا على كلمة سواء في فهم اللغة العربية ، ولم يكن حتى علماءهم بمصومين من الخطأ في فهم دلالات الألفاظ وفي نحو الحمل . ولم يكن هذا القصور محصوراً في علماء المسلمين وحدهم ، بل إنه تعداهم إلى الجاهليين أنفسهم فلم ينبج بعضهم من لحن هنا في القول ، أو خطأ هناك في التعبير . . وكانت هذه بعض بواعث التأليف في المعجم ، وليست كل البواعث بالطبع .

والذين نقلت عنهم العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب - كما يقول أبو نصر الفارابي - هم : (قيس وتميم وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالحملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم الجاورة لسائر الأمم حولهم ، فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام لجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون - بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لجاورتهم للثبط والفرس ، ولا من

(١) جورجى زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدئوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) .

إلى هذا المدى البعيد كان يمضى العرب في التحوط البالغ الخلد حين يقصدون إلى جمع اللغة ، حتى لا تنسرب إلى مصطلحها الأساسى شبهة من خطأ ، أو إثارة من اختلاط الحدود والأجناس ، وهذا يؤكد قضية خلوص العربية إلى العرب لغة نظيفة بما لا يقاس بها غيرها من اللغات .. ان مجرد الانتقال المادى من البادية إلى الحضرة ، ومجرد المجاورة للأمم لا تتحدث العربية ، ومجرد الاختلاط حتى للإقامة المؤقتة بمن تكون عربيتهم غير ناصعة الأصول والفروع ، ان مجرد الاقتراب من هذه الحدود يحيل المصدر إلى مصدر مرفوض ، حتى تظل لغة عصمتها إلى المدى الذى يطيقه البشر ، أما ما فوق الطاقة فهو يفرض حلوله التاريخى آيس في واقع اللغة وحدها ، وإنما في كل واقع مادى وروحى وفكرى بلا حدود .

وقد تطورت الفكرة المعجمية العربية منذ نشوئها الأول إلى عهد استوائها علماً محددآ بقواتبه وضاوابطه على أربع مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم ، والحديث النبوى . وكلام العرب كالذى يفعله ابن عباس القائل : (الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه) والقائل : (إذا تعاجم شئ من القرآن فانظروا فى الشعر فإن الشعر عربى) . وسأله نافع بن الأزرق - وصحبه مسائل كثيرة فى التفسير واشترط عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام

للرب فكان عند هذا الشرط ، وأجاب واستشهد في غير تلكو ولا
إبطاء : : وصنيع ابن عباس رضى الله عنه صنيع معجى على نحو من
الأعجاز . (١)

والمرحلة الثانية : مرحلة جمع المفردات ، وشرحها ، والاستدلال
عليها بما يؤيدها من كلام العرب ، وقد استبحر الناس في هذا الصدد ،
ولكنهم لم يفظنوا في هذه المرحلة الباكرة إلى قانون يرتبون به الأشياء ،
ويسلسلون به القضايا ، وابن عباس نفسه واحد من أبرز علماء هذه
المرحلة وهذا الاتجاه ،

والمرحلة الثالثة : مرحلة ظهور نوع من الكتب التى تجمع الألفاظ
في أسماء الوحوش والغابات والشجر ، كما فعل الأصمعي . . . وفي أسماء
الأنواء والنبات - كما فعل الدينورى . . . وفي مختلف الألفاظ الموضوعه
لمختلف المعانى ، كما فعل ابن السكيت في (الألفاظ) ، والهمداني في
(الألفاظ الكتابية) والاسكافي في (مبادئ اللغة) ، والشعالبي في (فقه
اللغة) ، وابن سيده في (المخصص) .

وقد يتبادر إلى الأذهان أن بعض هذه الكتب المتصلة بالأحياء ، كتب
في علم الحيوان والتشريح ، (ولكنها كتب لغوية يحوى كل منها أسماء
الحيوانات وأعضائها ومن الإنسان أسماء أعضائه وأحواله ، وكانت للعرب
همة عالية في استقصاء ذلك في صدر دولتهم ، ينبارون في التفتيش عنه
من أماكنه ، إما بالسفر إلى البادية ، أو بالسؤال ممن يقد على البصرة
والكوفة من فصحاء العرب) (٢) .

ولعل فيما كان يفعله الأمويون من استحثاثهم للأدباء والعلماء ما كان
يدفع بهؤلاء إلى استظهار أمثال هذه الأشياء ، واستبحارهم فيها ، وقد

(١) أنظر : الصحاح ومدارس المعجمات العربية - لأحمد عبد النفور عطار .

(٢) جورجى زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٢ ص ١٦٩ .

حدثوا أن عبد الملك في مجلس من مجالسه ضم جماعة من خواصه ومسامريه قال : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله على ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة فقال : « أنا لها يا أمير المؤمنين » فقال : « ما عندك » قال : (أنف ، بطن ، ترقوة . ثغر . جمجمة . خد . دماغ ، ذكر ، رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غيبة . فم . قفا . كتف . لسان . منخر . نغنج . هامة . وجه . يد . . . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين) .

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين . فاستدعى الخليفة سويدا . فقال سويد أنا أقولها ثلاثا ، وقولها ...

(فهذا وأمثاله بعث الناس على العناية بحفظ ألفاظ اللغة ، وحمل الآخرين على التأليف بشكل مجاميع ، فكل مجموع في موضوع ، فكتاب النخل والكرم مثلا لا يبحث في طبائع النخل والكرم ومعالجتها أو زراعتها ، وإنما هو يبحث في أسماء أنواعهما وأغصانهما وما يتعلق بها من اسم أو فعل . . . وقس على ذلك كتب خلق الإنسان والإبل وغيرها فكل منها يشتمل على أسماء وأفعال تجمعها صفة مشتركة بينها في المعنى ، فهي من قبيل المعاجم المعنوية التي تجمع مفردات اللغة فيها حسب معانيها ، تميزاً لها عن المعجمات اللفظية التي تجمع بها الألفاظ بحسب هجائها على ترتيب الأبجدية ، وأشهر المعجمات المعنوية « فقه اللغة » للعالبي ، و« المخصص » لابن سيده ، وهي آتمّ مما فعله الأصمعي وأتراه . . . ولكنها تشبهها من حيث المراد بها . . . وعلى كتب الخيل والشاة والإبل والشجر والكرم وخلق الإنسان وأشباهاها من كتب النوادر والأمثال والأضداد واللغات والفروق وغريب القرآن والحديث وكتب المياه والجبال ونحوها ، عول واضعوا المعجمات في ضبط الألفاظ ومعانيها فضلا عن تحريمهم المفردات عن فصحاء العرب) (١) .

(١) جورجى زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٢ - ص ١٢٠ - ١٢١ .

والمرحلة الرابعة : مرحلة إخراج المؤلفات التي تجمع الألفاظ بطريقة حاصرة ، وتشرحها شرحاً دقيقاً ، وهذا اللون من التأليف هو ما أطلق عليه اسم (المعجم) .

وقد رأى أحمد أمين أن الدراسات اللغوية المعجمية سارت في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : تدوين المفردات حينما اتفق ، وكما يتيسر لهم مماعها . فقد يسمعون كلمة في الفرس ، وأخرى في الغيث ، وثالثة في الرجل الفصير ، وهكذا ، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب .

المرحلة الثانية : جمع الكلمات الخاصة بموضوع واحد ، وأظهر ما كان ذلك في كتب الأصمعي فله كتاب الأنواء وكتاب الميسر والقداح وكتاب خلق الفرس وكتاب الإبل وكتاب الشاء ، وهكذا يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية في موضوع واحد ، ويسميه كتاباً وقد يكون الكتاب بضع ورقات (١) .

المرحلة الثالثة : وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص ليرجع إليه من يريد البحث عن معنى كلمة (٢) .

وهكذا نرى أن الحسّ المعجمي كان غائر الجذور في الذهنية العربية ، وأن تشرّعه وتطوره وارتقاه تم وفقاً للحركة الطبيعية في نشوء الأشياء وتطورها وارتقاها ، مما يؤكد أن طموح العقل العربي مؤسس على حقائق قارة فيه منذ البدء ، وأن علميته ناهضة على أساس من الوعي التاريخي بحقائق التطور العاقل وليس على أساس من الانفعال العاطفي الذي يتوهج لحظة وتخبو بلا رجوع .

لقد ظل هذا العقل العربي منصرفاً إلى اهتماماته المشاغلة طوال عصور

(١) انظر : فصحى الاسلام ج ١ ص ٢٦٢

(٢) انظر : فصحى الاسلام ج ١ ص ٢٦٥

النقاء اللغوي فلم يفكر طويلاً في الجمع والاستقصاء ، والترتيب لأن قضية الخلط اللغوي لم تكن واردة في هذه العصور . . وما إن أحس هذا العقل بيوادر اقتراب الخطر من تخومه اللغوية حتى نفر إلى الجهاد والجلاد ، مسلحاً ببصيرة الوعي وفقه التاريخ ، وأصالة الذات ، وأعطى في هذا الصدد عطاءً علمياً موضوعياً من جهة . وموصولاً منطوراً من جهة أخرى ، فدلل بذلك على اقتداره وأصالته ، وسنرى - حتى من مجرد استعراض تاريخ التطور التأليفى فى المعاجم - كم كان هذا العقل العربى عظيماً وهائل العطاء .

ففى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ألف الخليل بن أحمد معجم (العين) .

وفى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) ألف ابن دريد معجمه : (الجمهرة وفى العصر العباسى الثالث (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) ألف أبو على القالى (البارع) وقد ضاع أكثره ، وألف الأزهرى معجمه : (التهذيب) وألف الصاحب بن عباد (المحيط) وألف ابن فارس (المجلد) ، وألف الجوهرى (الصحاح) . وألف القزاز (الجامع) وقد ضاع ، وألف التيانى (الموعب) وقد ضاع . وألف ابن سيده (المحكم) و (المخصص) وهو معجم معنوى .

وفى العصر العباسى الرابع (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) ألف الزمخشرى (أساس البلاغة) وألف الصاغانى (العباب الزاخر واللباب الفاخر) :

وفى العصر المتولى (٦٥٦ - ٩٢٣ هـ) ألف ابن منظور (لسان العرب) ، وألف الفيروز آبادى (القاموس المحيط) وألف الفيومى (لمصباح المنبر) . ألف الراى (المختار الصحاح) .

وفى العصر العثمانى (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ) ألف الزبيدى (تاج العروس فى شرح جواهر القاموس) .

وفي عصر النهضة (١٧٩٨ م - ألف المعلم بطرس البستاني
 (محيط المحيط) وألف سعيد الشرتوني (أقرب الموارد) وألف الأب لويس
 معلوف اليسوعي (المنجد) وألف المعلم جرجس همam الشوبري (معجم
 الطالب) وألف عبد الله البستاني (البستان) وأخرج مجمع اللغة العربية
 (المعجم الوسيط) و (المعجم الكبير) .

وهكذا أعطى العقل العربي صورة رائعة الاقترار العلمي على التأصيل
 والتفعيد ودفع الحركة العلمية في اتجاه التطور الدائم . لخدمة موارثه ،
 فإذا عرفنا أن السبب في (نشوء) هذه المعاجم كان الحفاظ على القرآن
 الكريم من أن يتسرب إليه الخطأ في النطق أو في الفهم . . وحراسة اللغة
 العربية من اللحن أو العجمة أو الفساد وحماية الثروة اللغوية العربية من الضياع
 بموت علمائها ورواها : . عرفنا إلى أي حد كانت معاناة هؤلاء العلماء
 في سبيل إنجاز هذا العمل العلمي الكبير ، وإلى أي حد كذلك كان ميدان
 البذل في هذا الصدد يضحج بأرتال من علماء هذه الأمة المرهقين على ثغور
 اللغة والدين :

ولكن ينبغي أن تذكر الحركة العلمية دائماً أن الخليل بن أحمد
 الفراهيدي (١٧٤ هـ) هو رائد هذا النوع من التأليف المعجمي
 على نحو منهجي متكامل صحيح ، فقد جمع الألفاظ وشرح معانيها ، وربها
 ترتيباً غير مسبوق ، وهذا حسب . . فقد كان عمله هذا بمثابة نقطة الانطلاق
 التي تلقفها العلماء من بعده ، فأضافوا إلى ما بدأ به ، ونوعوا على الأساس
 الذي ارتضاه ، وخالفوه في قليل أو كثير مما ذهب إليه . . وهكذا أخذ
 التطور يفرض حلوله على تاريخ الحركة العلمية المعجمية ، ونشأت عن كل
 هذا الجدل العلمي مدارس معجمية عربية ثلاث :

مدرسة التقليبات : بشعبتها : شعبة التقليبات الصوتية ، وشعبة التقليبات
 الهجائية ومدرسة القافية ، ومدرسة الهجائية العادية .

ولكن متى أطلقت كلمة (معجم) في هذا الاستعمال للمرة الأولى ؟ :

يقول أحمد عبد الغفور عطار : (إن أول من استعمل الكلمة رجال الحديث ، وأول ما عرف كان في القرن الثالث ، وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو : « معجم الصحابة » لأبي يعلى التميمي الموصلي ، الذي ولد سنة ٣١٠ هـ وتوفي سنة ٣٠٧ هـ) (١) .

ويقول الدكتور حسين نصار : (ذلك أمر لا يستطاع ، لضياح كثير من كتبنا وآثارنا وأول ما عثرنا عليها عند أبي القاسم عبد الله بن محمد الجوى مؤلف المعجمين الصغير والكبير ، وقد ولد عام ٢١٤ هـ . ثم أطلقت في القرن الرابع على كثير من الكتب وأشهرها المعجم الكبير والصغير والأوسط في قراءة القرآن وأسمائه لأبي بكر محمد بن الحسن النقاش الموصلي (٣٥١ هـ) ومعجم الشيوخ لأبي الحسين عبد الباقي بن قانع بن مرزوق البغدادي (٣٥١ هـ) والمعجم الكبير والأوسط والصغير لأبي القاسم سليمان بن أحمد التبراني (٣٦٠ هـ) ومعجم الشيوخ لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الاسماعيلي (٣٧١ هـ) ومعجم الشيوخ لعمر بن عثمان البغدادي المعروف بابن شاهين (٣٨٥ هـ) ومعجم الصحابة لأحمد بن علي المهدي المعروف بابن لال (٣٩٨ هـ) .

أما متى أطلق هذا الوصف على المعجمات اللغوية ، فأمر لم أجد له أثراً في المراجع القديمة ، وليس ببعيد أن يطلق عليها في الوقت السابق نفسه ، لا شراً معها مع الكتب السابقة في الترتيب على حروف المعجم ، فالدلالة الملاحظة في الاسم هي الترتيب لا الجمع (٢) .

وهكذا ترى أن الكلمة (المعجم) معناها اللغوي الدال على حقيقة علمية نعرفها نحن الآن ، لم تكن كذلك في القرون الأولى ، ثم أخذت بعد ذلك في التحديد والتحدد حتى أصبحت ما هي الآن .

(١) الصحاح ومدارس المعجمات العربية ص ٥٣

(٢) المدج العربي نشأته وتطوره ج ١ ص ١٣-١٤

ومما ينبغي ملاحظته أن كلمة (المعجم) لم تكن وحدها الدال الوحيد على هذا النحو من التأليف المعجمي ، ولكن كلمة أخرى زاحمتها وفرضت وجودها إلى جوارها : وهي كلمة (القاموس) فقد سمي الفيروز آبادي معجمه باسم (القاموس المحيط) ومعناها البحر العظيم الشامل - فجزى هذا الاسم على الألسنة وتداولته الأقلام ، حتى أصبح (القاموس) مرادفا (للمعجم) .

ومهما يكن من شيء ، فإن الخلاف في تاريخ نشأة (المعجم) كمصطلح . لا يتعدى القول بأنه نشأ في القرن الثالث والقول بأن هذه النشأة كانت في القرن الرابع ، وربما نظروا في ذلك إلى أن بعض الكتب التي ألفت على حروف الهجاء وصفت بأنها سارت في ذلك على حروف المعجم ، فقد نسب ابن النديم (١) أنزرج محمد العروضي « كتاب معاني العروض على حروف المعجم » ونسب ياقوت (٢) لحبيش بن موسى الضبي « كتاب الأغاني على حروف المعجم » وغيرهما .

ويقال بأن هذه التسميات إذا كانت تعود إلى المؤلفين أنفسهم فإن نشأة المصطلح تكون في "قرن الثالث" . أما إذا كانت هذه التسميات تعود إلى من كتب عنهم فإن نشأة هذا المصطلح تكون في القرن الرابع !

(١) الفهرست ص ٧٣

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٠ - ٢٢١

obeikandi.com

أهم الظواهر التاريخية في وضع اللغة

حين اختلط العرب بغيرهم تحت راية الإسلام ، وخيف على لغتهم أن تشوبها شوائب العجمة والدخيل ، وفي ظل تأثير التطور الحتمي المصاحب لكل حركة علمية تواكب التطور الزمني ، بدأ علماء العربية يبدلون من نشاطاتهم الفكرية والعقلية في كل اتجاه .

فمنهم من اتجه إلى البحث في طبيعة اللغة العربية من حيث إعرابها فكان علم (النحو) ، ومنهم من اتجه إلى البحث فيها من حيث جزئياتها وفصاحتها فكان علم (البلاغة) ، ومنهم من اتجه إلى البحث في أشعارها والأصول التي يجرى عليها شعراؤها فكان علم (العروض) ، ومنهم من اتجه إلى البحث في بنيتها فكان علم (الصرف) ، ومنهم من اتجه إلى البحث في حروفها وأصواتها فكان علم (التجويد) ، ومنهم من اتجه إلى البحث في ألفاظها من حيث معانيها فكان علم (المعاجم) ، إلى غير ذلك من العلوم الإنسانية والطبيعية مما يتركبه تاريخ العقل العربي الذي حفزه الإسلام إلى امتلاك راية الريادة في كثير من ميادين الخلق والإبداع .

ولعل هذه الظواهر التاريخية في وضع اللغة تشير إلى حقيقة هامة ، هي أن بدء التأصيل الحقيقي لهذه العلوم وغيرها كان ثمرة اختصار الفكر التأصيلي في الذهنية العربية ، فلما وجد الحافظ - وهو هنا الخوف على لسان العروبة والقرآن - سارع هذا الفكر بالحلول الفعلي في تاريخ الحركة العلمية على كاهل اتجاه .. وليس بضاير هذا الفكر أن يكون قبل هذه المرحلة فكراً إبداعياً لا فكراً تأصيلياً ، أو أن يتزامن خوفه على لغته وقرآنه تحت إيقاع التشابك الحتمي . في ظل الإسلام بكثير من اللغات واللهجات والشعوب ، مع بداية زحف الترجمة من الفكر اليوناني والهندي والفارسي ، فيستفيد في حركة تأصيلية لعديد من العلوم من هذا الفكر المترجم ، ولا يعصب عينيه دون هذه

الاستفادة ، لأن الفكر الضامر وحده هو الذى يعانى من عقدة النقص هذه ، أما الفكر الواثق والممتلئ ، فهو الذى يفتح نوافذه على كل الشموس ، يأخذ ويعطى ، يؤثر ويتأثر ، يقيم بينه وبين ثقافة العالم من حوله هذا بالجدل العلمى الذى بدونه لا يمكن أن تمتلك حركة ثقافية مما عافيتها واكتماها وإذن فليس بضائر هذا الفكر العربى أن يكون فكراً إبداعياً فى مرحلة سابقة وأن يصير فكراً تأسيلياً فى مرحلة تالية ، وأن يستجيب فى هذه وتلك لكثير من العوامل البيئية والثقافية والحضارية ، وأن يحسن الجدل مع غيره من فكر العالم قديمه وحديثه ، لأنه بهذه الوضعية وحدها استطاع فى مرحلة تاريخية محدودة أن يمتلك زمام التطور ، وأن يصير مصدراً إشعاعاً للشرق والغرب ، وأن يعطى العالم كله حضارته الحقيقية ، مادياً وروحياً ، فكرباً ووجدانياً : إبداعاً وتأسيلاً .

وربما كان مرورنا العابر على ألوان من العلوم العربية كالنحو والصرف وأبلاغة والقراءات والأدب واللغة والمعاجم ، رمزا مجرد رمز - إلى ما أعطته الذهنية العربية فى عصور سطوعها الأولى ، فى هذه العلوم ، وفى علوم أخرى كالطب والفلك والرياضة والفيزياء والفلسفة وغيرها وغيرها مما تفيض فيه أعمال كاملة ولا نستطيع مع ذلك أن نحيط به أو أن نستقصى كل ملامحه وأبعاده .

ففى النحو : تم ضبط القواعد التى يسير عليها إعراب المفردات ليسهل تمثلها واحتداؤها ، ولترفع عن اللغة بعض أصر الاختلاط وماجره عليها من اكنة ولحن . . ثم ما لبث التطور أن أثرى هذه الدراسات فعرض علماء النحو للجمللة ترتيباً وتأثراً وعلاقات وربطاً وتقسيماً ودلالة .

وفى الصرف : انكب علمائه على تأصيل القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفاتها تغاير أبنيتها بتغير المعنى . . وكانت الجهود فى هذا

الميدان لا تكاد تفضل عن الجهود المبذولة في ميدان تأصيل علم النحو ، ولكن الزمن مازال بها حتى خصص الصرف بنوعية خاصة من هذه الجهود ، لأنها مع ذلك لم تنفصل انفصالا باتا عن مسائل النحو فلا تزال مسائل منه ممتزجة بمسائل النحو .

وفي البلاغة : كان الغرض من وراء نشوئها كعلم هو التأصيل لأهم قواعد جمالية الأسلوب العربي ، وعلى قمته التعبير القرآني الإلهي المعجز . . فأكب علم المعاني على بيان ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب من مطابقة لمقتضى الحال فصاحة حروف وكلمات ، وبلاغة مراعاة - لمقتضيات الأحوال . . وأكب علم البيان على شرح المناهج الفنية التي يصاغ بها المعنى الواحد في تراكيب متفاوتة في وضوح الدلالة عليه حقيقة أو مجازاً . . وأكب علم البديع على دراسة المحسنات اللفظية والمعنوية التي يحتملها الأسلوب ، بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة على المعنى المراد . . وكانت فلسفة هذا التقسيم البلاغي تنبض على أن أثر علمي المعاني والبيان في تحسين الكلام أثر (ذاتي) يتصل بصميم المعنى وأن أثر علم البديع فيه أثر (عرضي) يأتي لمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة على المعنى المراد . . وهكذا تتكامل النظرة الفلسفية في إحاطتها بالموضوع شكلا ومضمونا .

وفي القراءات : بدأت علومها بداية نقلية يتوارثها التلاميذ عن الشيوخ ، ولكن موضوعها (وهو بيان الوجوه التي يقرأ بها القرآن الكريم) فرض على العلماء في العصر العباسي ضبط قواعدها ، ونقد أسانيدھا ، وتأصيل اتجاهاتها . . ولعل الجهود التي بذلت في هذا الصدد قد أفادت العربية من جهات : فقد درست اسجھات العربية في صدر الإسلام . . ودرست أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ونحارجھا وألوان المد بأحكامها والغن بقوانينه والتأثير المتبادل بين أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة .

وفي أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبي : نهضت كل هذه العلوم في العصر العباسي وأخذت شكل التحدد العلمي على قدر ما توسع طبيعتها من هذا التحدد ، وما تزال هذه العلوم - بطبيعتها القابلة - ولن تزال في تطور مستمر ، خضوعاً لماهيتها من جهة ، ولطبيعة اتصالها بالتطور الفنى والذرقى والموضوعى من جهة أخرى .

وفي فقه اللغة : تطور التأليف فيه كعلم من مباحث الأصمعي في الاشتقاق .. إلى مباحث ابن جنى في أصل اللغة واطرادها وشذوذها وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها ، وأنواع الاشتقاق وتركب اللغات واختلاف اللججات .. إلى جهود ابن فارس في خصائص اللغة وفقهها وقياسها ومترادفها واشتراكها ونحوها .. إلى جهود الثعالبي في جمع بعض الألفاظ العربية المنسوبة إلى الرومية وبعضها القائم على لفظ واحد بين لغة العرب ولغة الفرس .. إلى جهود ابن سيده في الترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق وتعريب الألفاظ الأعجمية .. إلى جهود الخواليقي والبشبيشى والسيوطى وشهاب الدين الخفاجى والشدياق وغيرهم من اللغويين المعاصرين الذين أعطوا في فقه اللغة جهوداً علمية جادة .

وفي المعاجم : تطور التأليف وتشعب وذهب إلى اتجاهات ثلاثة :

١ - (رسائل في طوائف خاصة من الألفاظ أو المعاني ، ككتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات ، وكتب يعقوب في النبات والأصوات والفرق ، وكتب أبي حاتم في الأزمنة والحشرات والطيور ، وكتب الأصمعي في الدارات والسلاح والإبل والخيل والشاء وأسماء الوحوش والنبات والشجر والنخل والكرم والمشارك اللفظي ، وكتب أبي زيد في المطر واللبأ والابن والغرائز والحرائم والمشارك اللفظي ، وكتب ابن قتيبة في الرحل والمنزل واللبا واللبن ، وكتب ابن دريد في صفات السرج واللجام والسحاب والغيث ، وكتاب الفيروز آبادى في المترادف «الروض المألوف» فيما له إسمان إلى ألوف وكتاب ابن خالويه في أسماء الأسد وأسماء الحية ، وكتاب أبي هلال العسكري

في الألفاظ التي تطلق على بقايا الأشياء « المعجم في بقية الأشياء »
والكتب التي ألفت في الأضداد « الألفاظ التي تطلق على الشيء وضده »
لقطرب والحسن بن محمد بن الحسن الصغاني وابن السكيت وأبي بكر
ابن الأنباري وأبي البركات بن الأنباري وعبد الله بن محمد التوزي وابن الدهان
وابن درستوية ، والمعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ككشف
اصطلاحات الفنون للتهانوي والتعريفات للجرجاني وللكليبات لأبي البقاء
ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لعبد الله بن عبد العزيز البكري
الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧هـ وهلم جراً . . وهذا النوع من المعجمات كان
أسبق في الظهور من النوعين الآتين ، فقد ظهر بعض كتب منه في قائمة
العصر العباسي (١) .

٢ - (معجمات جامعة ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف
المعاني ، فترتب المعاني بطريقة خاصة ، وتذكر الألفاظ التي تقال للتعبير
عن كل معنى منها ، فنجد أبوابها مرتبة نحو هذا الوضع : خلق الإنسان ،
الحمل والولادة ، والرضاع والقطام ، الغذاء السيئ للولد ، أسنان الأولاد
وتسميتها في المراحل المختلفة ، شخص الإنسان وقامته وصورته ، صفات
الرأس ، قلة الشعر وتفرقه في الرأس ، وهلم جراً ، وتذكر في كل باب
المفردات التي تعبر عن موضعه مرتبة ترتيباً خاصاً ، ومبيّنة مدلولاتها
ومواضع استعمال كل منها . . فهذا القسم من المعجمات يرجع إليه من يعرف
معنى ما ويرغب في الوقوف على الألفاظ الموضوعة له . . ومن أشهر
ما ألف من معجمات هذا القسم خمسة كتب : أحدها : « كتاب الألفاظ »
لابن السكيت (١٨٦ - ٣٤٤ هـ) وهذا هو أقدم ما ألف من هذا النوع ، وثانيها
« الألفاظ الكتابية » للهمداني (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ) وثالثها : « مبادئ اللغة »
للإسكافي (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ورابعها : « فقه اللغة » للشعالبي (المتوفى
سنة ٤١٩ هـ) في مجلد صغير . وخامسها : « المخصص » لابن سيده (أبو الحسن

(١) د / عل عبد الواحد واتى - فقه اللغة ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

على بن اسماعيل الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) في سبعة عشر جزءاً ، وهو أذقها دراسة وأحسنها تنسيقاً وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث(١) .

٣ - (معجمات جامعة ترمى إلى شرح معاني المفردات فترتب الكلمات ترتيباً خاصاً ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها في مواطنها . فهذا القسم من المعجمات ، على العكس من القسم السابق ، يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب في الوقوف على مدلوله وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٤ هـ) فقد وضع كتابه : « العين » ورتب كلماته حسب ترتيبها في مخارج أول حروفها ، مبتدئاً بأقصى الحلق (ولذلك بدأه بحرف العين الذى سمي الكتاب باسمه ومنها بالشتين ، غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل إتمامه فأكمله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن) (٢) .

وهكذا نرى أن لغة ما لم يتوافر لها ما توافر للعربية من معجمات لغوية ، فإذا تجاوزنا نوعيات الرسائل الصغيرة التى ظهرت في القرن الأول الهجرى ، وجدنا عالم العربية الكبير الخليل بن أحمد في القرن الثاني يفتتح عصر التأصيل المعجمى في كتابه : « العين » ثم تتواتر الجهود من بعده في وضع المعجمات المختلفة شكلاً ، وموضوعاً وتبويباً ، بحيث لانكاد نجد قرناً من القرون لا يظهر فيه معجم أو معجمات ، ولعل القرن الرابع بالذات كان عصر المعجمات الكبيرة ، فقد ظهر فيه « الجوهرة » لابن دريد (٣٢١ هـ) و « التهذيب » للأزرهر (٣٧٠ هـ) و « المحيط » للصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) و « المجمل » لابن فارس (٣٩٥ هـ) و « الصحاح » للجوهري (٣٩٧ هـ) ... وهذا وحده يؤكد أن الدهنية العربية في هذا القرن الرابع كانت قد استوت

(١) د : حل عبد الواحد وائى - فقه اللغة ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) د : حل عبد الواحد وائى - فقه اللغة ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

على أوج النضوج العلمى المنهجي ، وأن العربية في هذا القرن الرابع كذلك كانت قد استعدت بما لا يدع مجالاً للشك جهود علمائها الباذلين في مجال التأسيس والتعميد والتنظير ، حماية لمصطلحها اللغوي أن تشبه معاملة وأن محتلط أنسابه وأسبابه ، وأن يصحح في زمن قادم موضع ارتياب وتأويل ومجادلات ، وقد كان علماء العربية عند حسن ظنهم ، فأعطوها أروع ما عندهم ، وهو أروع ما عند العالم في زمانهم وفي كل زمان 111 .